النحو العربي

تاريخه وخصائصه وأعلامه

أ٠د. ممدوح عبد الرحمن الرمالي
أستاذ العلوم اللغوية
رئيس قسم النحو والصرف والعروض

الرمالي ، ممدوح عبد الرحمن
النحو العربي : تاريخه وخصائصه وأعلامه
/ ممدوح عبد الرحمن الرمالي .-ط١٠ - المنيا :
دار التيسير للطباعة والنشر ،٢٠٠٦.
ص ٢٤ ؛ ٢٤ سم
تدمك٢ ٠٥٨ ٣٩٧ ٩٧٧
١-اللغة العربية - النحو - تاريخ
أ-العنوان
٤١٥,١٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذي أنزل الكتاب بلسان عربي مبين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد

فدفعني للكتابة فى هذا الموضوع بعد أن أنجزت سلسلة من البحوث الأكاديمية والكتب التعليمية فى تخصص العلوم اللغوية والساميات والترجمة بصفة عامة والنحو والصرف والعروض بصفة خاصة ودراسات حول العربية المعاصرة وطرق دراستها وتأصيل ظواهرها ورصد التغير الذى طرأ على هذا المستوى من العربية بلغ ما يقرب من مائة مؤلف ما عهدت إليّ جامعة المنيا من إعداد تصور للتعليم المفتوح فى العلوم العربية وأن أعد المقررات للفرق الأربعة لليسانس اللغة العربية بالتعليم المفتوح ، فوجدت فى ذلك مناسبة لأن أكتب مادة تميز ليسانس التعليم المفتوح عن ليسانس دار العلوم ، وكان هذا هو هدف الجامعة ، لكنى وجدت فى ذلك مناسبة يستطيع من خلالها الدارس بكليات دار العلوم أن يتعرف على خريطة النحو العربي وأن يعرف الغرض من دراسة هذا العلم وأهدافه ومجالات تطبيقه – سواء فى ذلك التعرف على ظواهر اللغة أم القواعد الضابطة لهذه اللغة أم طريق الولوج إلى تحليل النص – ومراحله والهدف من ظاهرة الإعراب التي لا تنحصر فى تحديد العلامة الإعرابية وإنما تهدف إلى بيان ما ينطوى عليه هذا العلم والفوائد التى تعود على الدارس من معرفة أعلام النحو العربى وتاريخ هذا العلم وطرق التأليف فيه وحلقات هذا التأليف ، وأن أضيف بهذا الكتاب جانبًا لم يتح للدارسين أن يجدوه فى مؤلفات تاريخ النحو كنشأة النحو للشيخ محمد الطنطاوى

وسيبويه إمام النحاه لعلى النجدى ناصف ، والخليل بن أحمد للدكتور مهدى المخزومى ، والمدارس النحوية للدكتور شوقى ضيف ، والنحو التعليمى فى التراث العربى للدكتور محمد إبراهيم عبادة ،ومدرسة البصرة للدكتور عبد الرحمن السيد ، ومدرسة الكوفة ومنهجها فى اللغة والنحو للدكتور مهدى المخزومى والمدخل إلى النحو والصرف للدكتور عبد العزيز عتيق وغيرها ، وذلك الجانب الذى أردت أن أضيفه هو جانب الفكر النحوى وتاريخ النحو الذى توقفت الكتب فيه عند حد السيوطى أو الألفية وشروحها وحواشيها ، فلقد حدثت بعد هذا الحد طفرة فى التأليف النحوى بدأت فى العصر الحديث فى مصر وفى بلدان العالم العربى مثل سوريا والعراق وبلاد المغرب العربى وتونس والجزائر ، واشتهر فى ذلك أعلام وظهرت مؤلفات وتطبيقات عديدة للنظرية النحوية المعاصرة المهجنة فقد استعانت هذه النظرية بطرق التحليل العربية التقليدية واستعملت أدواتها بحيث لم يغنها عنها مناهج الدرس النحوى الحديث ورموزها وفكرها النحوى بحيث دخلت أدوات تحليل هذا العلم – أقصد النحو العربي – فى التحليل البنيوى والتحليل الشجري والتحليل التجميمى والتحليل الأسلوبي والتحليل النصي ، وكان للبعثات العلمية إلى أوربا وأمريكا دور في نمو هذا الاتجاه فظهر الدكتور تمام حسان والدكتور كمال بشر والدكتور عبد الرحمن أيوب والدكتور إبراهيم أنيس والدكتور أحمد مختار عمر والدكتور محمود السعران والدكتور حسن ظاظا والدكتور محمد أحمد أبو الفرج من جامعتى القاهرة والإسكندرية ، ناهينا بأعلام التأليف النحوى فى العالم العربى الذين عرفوا من خلال مؤلفاتهم

كالدكتور مهدى المخزومى والدكتور مالك يوسف المطلبى والدكتور ابراهيم السامرائى والدكتور محمد حسن آل ياسين والدكتور فاضل الساقى وغيرهم من العراق والدكتور سعيد الأفغانى والدكتور فخر الدين قباوة والدكتور مازن الوعر وغيرهم من سوريا ، والدكتور عبد القادر الفاسى الفهرى والدكتور أحمد المتوكل والدكتور أحمد الادرسى والدكتور محمد الحناش والدكتور عبد السلام المسدى والدكتور محمد الهادى الطرابلسى وغيرهم من المغرب العربى .

غير أن مؤلفات أعلام المغرب العربى ولبنان اتسمت بكذاذة الأسلوب والإغراق فى الغموض بسبب استعمال المعادلات الرياضية التى تخدم القارئ الأجنبى أو الفرنسى بصفة خاصة فى ميدان الدراسات العربية دون أن تقدم للقارئ العربى سوى الأفكار النحوية إن توفرت لديه القدرة على استخلاص هذه الأفكار، وإذا كان اتجاه الدرس فى كليات دار العلوم يتجه إلى الجانب الأدائى وأقصد الأداء الكلامى وأن الطالب أو الدارس يخرج دائمًا وفى ذاكرته حصيلة من الأبواب هى الإعلال والإبدال والنواسخ والمعرب والمبنى والمنصوبات والمعارف والتوابع والمجرورات ودراسة الأفعال والمصادر والمشتقات دون أن يكون هناك تصور للمنهج الذى يجمع هذه الظواهر والأفكار النحوية التى أفرزت طرق التحليل النحوى والإعرابى أو حتى الإلمام بأعلام هذا الدرس النحوى الذين اختلفت بيئتهم وأزمنتهم وانتماءاتهم ومذاهبهم العقدية والفكرية وتأثرهم بعلوم الكلام والفقه والفلسفة وتوزعهم ما بين أشاعرة ومعتزلة وظاهرية بحيث وظفت

هذه العلوم فى طرق الأداء النحوي من ناحية وطرق التحليل مـــن ناحيـــة أخرى ٠

وقد جاء هذا العمل صورة مبسطة لما طرأ على الدرس النحوي فى القديم والحديث بحيث يرصد هذا الخليط الذى عرضته فى هـــذه المقدمـــة دون أن يتعرض بالتفصيل لجزيئات هذا الخليط لكنه يبين أثر كل ذلك على هذا العلم تأليفًا ومنهجًا وطرق عرض وتحليل .

وبعد فإني أرجو من الله العلى القدير أن ينفع بهذا العمل الدارسين وطلاب العلم وأن ينفعنا به وأن ينفع الناس بنا و به ولله الحمد ومنه المنة وهو سبحانه وتعالى ولى التوفيق ٠

أ٠د / ممدوح عبد الرحمن الرمالى

أستاذ العلوم اللغوية

ورئيس قسم النحو والصرف والعروض

الإسكندرية يوليو ٢٠٠٦

وضع علم النحو

ذهب جمهور العلماء إلى أن وضع النحو كان فـــي الصـــدر الأول للإسلام إذ أن علم النحو ككل قانون تتطلبه الحوادث وتقتضيه الحاجات ولم يكن قبل الإسلام ما يحمل العرب على النظر اليه فانهم فى جاهليتهم غنيون عن تعرفه لأنهم كانوا ينطقون عن سليقة جبلوا عليها فيتكلمون فى شئونهم بدون إعمال فكر أو رعاية قانون كلامى يخضعون له حتى هرعـــوا إلـــى وضع النحو ، وكان وضعه ونشوؤه بالعراق لأنه على حدود البادية وملتقى العرب وغيرهم .

وذهب فريق إلى أن العرب كانوا يتأملون مواقع الكلام وأن كلامهم ليس استرسالاً ولا ترجيحًا بل كان عن خبرة بقانون العربية، فالنحو قـــديم فيهم أبلته الأيام ثم جدده الإسلام على يد أبى الأسود الدؤلى بإرشاد الإمام على كرم الله وجهه ويمثل هؤلاء العلماء أحمد بن فارس القزوينى الـــذى ذهب إلى أن علوم العربية من النحو ومصطلحاته والخط والعروض كانت معروفة لدى العرب من قديم الزمن ثم درست وأمحت ثم جـــاء الإســـلام فجددها وبعثها من جديد بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث نسب ذلـــك إلـــى الموفق الأول وهو الله تبارك وتعالى .

ظهور مصطلح " النحو "

تضافرت كتب الأدب والتراجم والطبقات على أن علم النحو كان يسمى في عصر أبي الأسود الدؤلي باسم "العربية " فقد قال ابن سلام الجمحي في طبقاته : " وكان أول من استن العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي "

وقال ابن قتيبة : " أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي " [١]

وقال ابن حجر العسقلاني : " أول من ضبط المصحف ووضع العربية أبو الأسود الدؤلي " [٢] وقال الامام على بن أبي طالب لأبي الأسود حينما سأله : فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ قال سمعت ببلدكم لحنا فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية " [٣]

وروى محمد بن عمران بن زياد الضبي قال : " حدثني أبو خالد قال : حدثنا أبو بكر بن عباس عن عاصم قال : جاء أبو الأسود الدؤلي إلى عبيد الله بن زياد يستأذنه في أن يضع العربية " [٤]

وروى يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عباس عن عاصم قال : أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي "

---

[١] ابن قتيبة : المعارف : ٤٠٣

[٢] ابن حجر العسقلاني : الغصابة في تمييز الصحابة ٢٠٣/٤

[٣] القفطي : انباه الرواة : ٤

[٤] الزبيدي : أخبار النحويين البصريين : ٣٤٠

ويقول السيرافى فى ترجمة نصر بن عاصم : روى محبوب البصرى عن خالد العزاء قال : سألت نصر بن عاصم وهو أول من وضع العربية كيف تقرؤها .

وظلت هذه التسمية – العربية – طيلة الطبقات الأربعة الأوليات بحسب تقسيم أبى بكر الزبيدى – أو الطبقتين الأوليين بحسب تقسيم الشيخ محمد الطنطاوى حيث لم يكن ثمة ذكر لكلمة " النحو " حينئذ ، وإنما كان أول عهد الناس بإطلاق المصطلح " نحو " على هذا العلم هو ما جاء على لسان الخليل بن أحمد الفراهيدى وهو يمثل الطبقة الخامسة عند الزبيدى والثالثة عند الطنطاوى ، فمصطلح النحو لم يكن معروفاً ولا متداولاً بين العلماء فى زمن أبى الأسود الدؤلى ولا فى عصر من جاء بعده من نحاة الطبقات الأربعة الأوليات ، وإنما ما كان معروفاً ومتداولاً هو مصطلح "العربية " ثم ظهر مصطلح " النحو " الذى أخذ فى الذيوع والانتشار على ألسنة العلماء حتى استقر وثبت وأصبح علماً على هذا العلم المنوط به ضبط اللغة وصيانتها من اللحن والفساد .

ويقال إن أبا الأسود الدؤلى لما عرض على الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – ما وضعه من النحو أقره بقوله : ما أحسن هذا النحو الذى نحوت " فآثر العلماء تسمية هذا العلم باسم النحو استبقاء لكلمة الإمام رضى الله عنه التى كان يراد بها أحد معانى النحو اللغوية والمناسبة بين المعنيين اللغوى والاصطلاحي جلية واضحة [1]

---

[1] نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : ٣٣

يقول ابن الأنبارى : بعد أن ذكر رواية أبى الأسود هذا العلم من الإمام على – عليه السلام – فلذلك سمى النحو نحوًا " (١)

يكاد يكون هناك اتفاق على أن أبا الأسود له المجهود الأكبر في وضع النحو ، لكن لم يكن يعرف فى عهده بهذا اللقب بل كان يعرف بعلم العربية ، لكن ولادة هذه التسمية لم تتجاوز الطبقة الثانية فقد اشتهرت عنها مؤلفات اتسمت بأنها نحوية وصرح فيها باسم النحو لذا كانت تسمية كتب التراجم لهذا العلم فى عهد أبى الأسود بعلم النحو تسمية مجازية مبنية على الاتساع فلم تحدث هذه التسمية إلا فى وقت متأخر عن أبى الأسود لقب بها هذا النوع من علم العربية وسمى بهذا لما قيل من أن على بن أبى طالب قال لأبى الأسود : " انح هذا النحو" أو " ما أحسن النحو الذى نحوت " ، وأننا كنا لا نعرف بالدقة زمن التسمية ولا واضعها .

(١) نزهة الألباء فى أخبار الأدباء لابن الأنبارى : ٥

واضع علم النحو

اختلف العلماء حول واضع علم النحو :

- ذهب بعضهم إلى أن : أبا الأسود الدؤلى هو أول من رسم النحو وذهب آخرون إلى أنّ نصر بن عاصم الليثى هو أول من رسم النحو ويرى البعض أن عبد الرحمن بن هرمز هو أول من رسم النحو وأكثر العلماء على أنّ أبا الأسود الدؤلى هو واضع النحو العربى .
- ومنهم من نسب إلى ثلاثتهم جميعاً وضع النحو يقول أبو بكر الزبيدى : " أول من أصل النحو وأعمل فكره فيه أبو الأسود الدؤلى ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز فوضعوا للنحو أبوابًا وأصلوا أصولاً له .
- ولكن جمهور العلماء كابن سلام الجمحى وابن قتيبة والزجاجى وأبى الطيب اللغوي والسيرافى والزبيدى ، وابن النديم ، وابن الأنبارى والقفطى – يجمعون على أن أول من وضع النحو هو أبو الأسود الدؤلى .
- وقد انفرد ابن الأنبارى والقفطى بنسبة وضع النحو ابتداء إلى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

مما سبق يتبين أن وضع النحو ينحصر فى شخصين لا ثالث لهما هما الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – وأبو الأسود الدؤلى .

إلا أن بعض المحدثين يشكك فى هذا الأمر رغم توافر الروايات وتطابق أقوال السلف وتضافر المؤرخين جريًا وراء ترهات يتشدق بها المستشرقون دون سند أو برهان .

فهذا هو الأستاذ إبراهيم مصطفى يقول : ولكنا لا نستطيع أن نتقبل ذلك ويعني وضع أبى الأسود للنحو – بيسر أن نستتبع أن هذا الزمن المبكر قد تمكن فيه العرب من الاشتغال بالعلوم ووضع القواعد على هذا الوجه الذى تراه فى كتب العربية وقد أنكر ذلك المستشرقون وعدوه خرافة .

ثم دخل عامل آخر وهو هوى بعض المؤلفين إذ كانوا يكرهون أن ينسب شئ إلى زياد ويحبون أن ينسب كل شئ إلى عليّ وشيعته .

فالروايات والأخبار المختلفة الموجودة فى كتب الطبقات والتراجم وغيرها تكاد تجمع على نسبة علم النحو " العربية " إلى أبي الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩هـ ، فهو أول من رسم للناس النحو أو هو أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها .

وتشير الروايات والأخبار إلى أنّ أبا الأسود الدؤلى وضعه بمشورة أمير المؤمنين على ابن أبى طالب كرم الله وجهه – فقد فتح له الطريق إلى الوضع فى النحو وأرشده إليه؛ لأنه أعطاه أصولاً بنى منها وعمل بعده عليها .

ويعود السبب فى وضع النحو إلى انتشار " اللحن " على الألسنة حين اختلط العرب بغيرهم من الشعوب والأجناس غير العربية .

ونقدم روايات تتحدث عن نشأة النحو و هى تمضى على النحو التالى : –

نسب وضع على بن أبى طالب كرم الله وجهه – لهذا العلم ما روى أبو الأسود قال : دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب فوجدت فى

يده رقعة فقلت ما هذه يا أمير المؤمنين فقال إنى تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء "الأعاجم" أردت أن أضع لهم شيئًا يرجعــون إليه ، ويعتمدون عليه ثم ألقى إلىّ الرقعة وفيها مكتوب : الكلام اسم وفعل وحرف ؟

فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبئ به ، والحرف ما جاء لمعنى ، وقال لى : انح هذا النحو وأضف إليه ما وقع إليك .

وأعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضــمر واســم لا ظاهر ولا مضمر وإنما يتفاضل الناس – يا أبا الأسود – فيما ليس بظاهر ولا مضمر وأراد بذلك الاسم المبهم .

قال أبو الأسود : فكان ما وقع إلىّ " إن وأخواتها " ما خلا " لكن " فلما عرضتها على علىّ – رضى الله عنه – قال لى : وأين لكن ؟

فقلت / كا حسبتها منها ، فقال : هى منها فألحقها . ثم قــال : مــا أحسن هذا النحو الذى نحوت فلذلك سمى النحــو نحــواً وهنــاك بعــض الملاحظات التى نستطيع التوصل إليها[1] من تلك الرواية :

١- يعود السبب فى وضع النحو إلى انتشار اللحن .

٢- يعد أبو الأسود الدؤلى إمام النحاة ورائدهم ، لذلك أجمعت المصــادر على أن النحو نشأ بالبصرة ، وبها اتسع ونما وتكامل وصار علماً له حدوده وموضوعاته وقضاياه وأن أئمته ورواده بنزعتيــه الســماعية والقياسية من علماء البصرة .

---

[1] أصول النحو العربى د. حمود سليمان ياقوت

٣- أحسن أبو الأسود الدؤلي الإفادة من الإمام علي كرم الله وجهه الذي نسبت إليه الروايات والأخبار خوضة في النحو وحدوده ومن ذلك ما قاله القفطي : رأيت بمصر في زمن الطلب بأيدي الوراقين جزءاً فيه أبواب من النحو يجمعون على أنها مقدمة علي بن أبي طالب التي أخذها عنه أبو الأسود الدؤلي .

وقد أشارت كتب الطبقات والتراجم إلى أن أبا الأسود كان محباً للإمام علي كرم الله وجهه وكان من المتحققين بمحبته ومحبة ولده .

٤- عرف النحاة منذ المراحل الباكرة بعض المصطلحات التي ما تزال مستعملة حتى الآن مع تقديم تعريف لها ومن ذلك ما يتصل بأقسام الكلمة الثلاثة : الاسم والفعل والحرف والحد الخاص بكل واحد منها .

٥- سمي النحو العربي نحواً من قول الإمام علي لأبي الأسود :

" ما أحسن هذا النحو الذي نحوت "

وقد اعترض بعض المحدثين على الرواية السابقة وما بما يماثلها من الروايات لأن بها الكثير من التعريفات والتقسيمات المنطقية التي لا يعقل أن تصدر عن الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أو أحد معاصريه ، والرأي عندنا أن خوض الإمام علي في النحو مصطلحاته وأبوابه المختلفة ليس بمستغرب أو بمستبعد لما عرف عنه من الفصاحة والبيان وتذوق الأساليب العربية العالية في أدائها اللغوي ، بالإضافة إلى أن ما وصل إلينا منسوبا إليه عبارة عن بعض الروايات والأخبار أو المقدمات ، وليس كتابا قائما بذاته يجمع كل ما يتصل بالنحو العربي .

أما عن أبى الأسود فهو أحد الرواد الأوائل وجهده فى نشأة النحو إنما هو جهد المؤسس الذى فتح الباب أمام معاصيره ومن أتوا بعده وهناك عدة روايات تدل على أن الخطأ فى الإعراب كان أحد العوامل الأساسية التى أدت إلى نشأة النحو ونقدم بعض تلك الروايات :

(١) قدم أعرابى فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فقال من يقرئنى شيئًا مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأقرأه رجل سورة براءة فقال : أن الله برئ من المشركين ورسوله " بالجر لكلمة رسوله " فقال الأعرابى : أو قد برئ الله من رسوله إن يكن قد برأ من رسوله فأنا أبرأ منه فبلغ عمر – رضى الله عنه مقالة الأعرابى ، فدعاه فقال يا أعرابى : أتبرأ من رسول الله فقال : يا أمير المؤمنين : إنى قدمت المدينة ، ولا علم لى بالقرآن فسألت من يقرأنى فأقرأني هذا سورة براءة فقال : "إن الله برئ من المشركين ورسوله " فقلت : أو قد برئ الله تعالى من رسوله ! إن يكن برئ من رسوله فأنا أبرأ منه .

فقال له عمر رضى الله عنه : ليس هكذا يا أعرابى فقال كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إن الله برئ من المشركين ورسوله فقال الأعرابى : وأنا – والله – أبرأ ممن برئ الله ورسولُه منه فأمر عمر رضى الله عنه ألا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة وأمر أبا الأسود أن يضع النحو .

وواضح من هذه الرواية أن نشأة النحو ترتبط باللحن حين قـــراءة آى الذكر الحكيم ، وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الذى أمر أبا الأسود بوضع النحو وتشير إلى أن كلمة رسوله مرفوعة من ثلاثة أوجه :

أولها : "رسول" مبتدأ ، والخبر محذوف والتقدير : ورسوله بـــرئ وثـــم حذف الخبر لدلالة الأول " برئ " عليه .

ثانيها : رسول اسم معطوف على الضمير المستتر فـــى كلمـــة بـــرئ إذ التقدير : برئ هو وجاز العطف على الضمير المرفوع وإن لم يؤكد لوجود الفاصل بالجار والمجرور "من المشركين " أنه يقوم مقامه .

ثالثها : رسول مرفوع بالعطف على موضـــع " أن " واســـمها " أن الله " وموضعه الرفع لأنه يجوز أن نقول : إن زيداً قائم وعلى بـــالرفع لكلمـــة "على" .

(٢) روى أن ابنة أبى الأسود الدؤلى قعدت معه فى يوم قائظ شديد الحـــر فأرادت التعجب من شدة الحر فقالت : ما أشد الحر فقال أبوها القيظ ، وهو ما تحته فيه يا بنية ، جوابا عن كلامها لأنه اســـتفهام فتحيـــرت وظهر له خطؤها فعلم أبو الأسود أنها أرادت التعجب فقال لها قولى يا بنية : ما أشدَّ الحر .

فعمل بابا التعجب وباب الفاعل والمفعول به وغيرها من الأبـــواب وواضح من هذه الرواية أنها تربط نشأة النحو العربى باللحن فـــى اللغـــة المنطوقة التى كانت عبارة عن حوار بين أبى الأسود وابنتـــه ، وأن أبـــا الأسود وضع النحو دون أن يأمره أحد بذلك ، ونشير إلى أن"ما أشدَّ الحر" أسلوب الاستفهام يحتاج إلى إجابة وهذا ما فعله أبو الأسود حين أجاب عن

سؤال ابنته التي لم تكن تقصد ذلك في حين أن " ما أشدَ الحـر " أسـلوب تعجب لا يحتاج إلى إجابة ولكن ربما يحتاج إلى تعليق من الطرف الآخر للدلالة على المشاركة فى الرأى أو الرفض . وحين الإعـراب لأسـلوب الاستفهام الذى استعملته على سبيل الخطأ ابنة أبى الأسود نقول :

ما : اسم استفهام مبنى على السكون فى محل رفع مبتدأ .

أشد : خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره وهو مضاف

الحر : مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره لأنه مفرد .

وحين الإعراب لأسلوب التعجب الـذى اسـتعمله أبـو الأسـود لتصحيح خطأ ابنته نقول :

ما : اسم تعجب مبنى على السكون فى محل رفع مبتدأ وهى نكـرة تامـة بمعنى " شئ "

أشد : فعل ماض مبنى على الفتح ، والفاعل ضمير مستتر وجوبًا تقـديره "هو" يعود على "ما" والجملة من الفعل والفاعل فى محل رفع خبر "ما" .

الحر : مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره .

(٣) قال عاصم بن أبى النجود : أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلى ، جاء إلى زياد بالبصرة ، فقال إنى أرى العرب قـد خالطـت هـذه الأعاجم وتغيرت ألسنتهم ، أفتأذن إلى أن أضع للعرب كلامًا يقيمـون به كلامهم ؟ قال : لا فجاء رجل إلى زياد فقال أصـلح الله الأميـر ! توفى أبانا وترك بنون . فقال زيد : توفى أبانا وترك بنون! ادع إلـى أبي الأسود فقال : ضع للناس الذى كنت نهيتك أن تضع لهم .

وواضح من هذه الرواية أنها تربط نشأة النحو باللحن فـي اللغـة المنطوقة الذى تنبه إليه زياد بن أبيه وقد أمر أبا الأسود بوضـع النحـو للناس بعد ما كان قد نهاه عن ذلك وتتخذ تلك الرواية صورة أخرى تقـول إن زياد بن أبيه قال لأبى الأسود : يا أبا الأسود إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب فلو وضعت شيئًا يصلـح بـه النـاس كلامهـم ويعربون به كتاب الله فأبى ذلك أبو الأسود وكره إجابة زياد إلى ما سأل .

ثم تشير الروايات إلى أنه استجاب له فيما بعد .

ونشير إلى أن الصواب للعبارة التى أنكرها زياد هى : توفى أبونا وترك بنين . وأبونا نائب فاعل ، "وبنين" مفعول به .

وإذا كانت الروايات والأخبار التـى وردت فـي كتـب الطبقـات والتراجم وغيرهم تكاد تجمع على نسبة وضع علم النحو إلى أبى الأسـود فإننا لا نعدم بعض الروايات الأخرى التى تنسب هذا الوضع إلى غيره من النحاة وقد أحسن التعبير عن هذا ابن النديم في قوله : " زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبى الأسود الدؤلى ، وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أميـر المؤمنين على بن أبى طالب . وقال آخرون :

رسم النحو نصر بن عاصم الدؤلى ويقال الليثى ، قرأت بخط أبـى عبد الله ابن مقلة عن ثعلب أنه قال : روى ابن لهيعة عن أبى النضر قال : كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية وكـان أعلـم النـاس بأنساب قريش وأخبارها وأحد القراء ، وكذا حدثنى الشـيخ أبـو سـعيد السيرافى رضى الله عنه .

وورد نص عن الزبيدى ينسب علم النحو إلى جهود ثلاثة هو أبو الأسود ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا للنحو أبواباً وأصلوا له أصولاً ، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ووضعوا باب الفاعل والمفعول والمضاف ثم يستدرك الزبيدى قائلاً : وكان لأبى الأسود في ذلك فضل السبق وشرف التقدم .

- مجموعة من الآراء حول نشأة النحو العربى :

١-وضع أبو الأسود النحو اعتمادًا على بعض الأصول والأبواب التى ألقاها إليه الإمام على – كرم الله وجهه .

٢-وضع أبو الأسود الدؤلى النحو بأمر من عمر بن الخطاب رضى الله عنه أو زياد بن أبيه .

٣-وضع أبو الأسود الدؤلى النحو دون مشورة أو أمر من أحد بعد أن لاحظ وقوع ابنته في اللحن.

٤-وضع نصر بن عاصم الليثى النحو .

٥-وضع عبد الرحمن بن هرمز النحو .

٦-وضع أبو الأسود الدؤلى ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز النحو وكان أبو الأسود الدؤلى له فضل السبق وشرف التقدم على هذين الرجلين ولكن دورهم هم الثلاثة هو دور الوضع للنحو .

والرأى الأول أرجحهما ويكفى أن نلاحظ فيه الدور الرائد للإمام على كرم الله وجهه ، وقد عرف بالفصاحة والبيان وفقه الأساليب العالية والقدرة العجيبة على فهم آى الذكر الحكيم .

ويرى البعض أن النحو ينسب إلى أبي الأسود الدؤلي ، وضعه بمشورة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

يقول أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري في كتابه : نزهة الألباء في طبقات الأدباء : " وسبب وضع علي عليه السلام لهذا العلم ما روى أبو الأسود ، قال : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فوجدت في يده رقعة ، فقلت ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال: إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء – يعني الأعاجم – فأردت أن أضع شيئًا يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه ، ثم ألقى إليّ الرقعة وفيها مكتوب : الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ به والحرف ما أفاد معنى ، وقال لي : انح هذا النحو وأضف إليه ما وقع إليك ، وأعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر وأراد بذلك الاسم المبهم ، قال ثم وضعت بابي العطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب إن وأخواتها ، ما خلا لكن فلما عرضتها على عليّ – عليه السلام – أمرني بضم لكن إليها . وكنت كلما وضعت بابًا من أبواب النحو عرضته عليه – رضي الله عنه – إلى أن حصلت ما فيه الكفاية ، قال ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوته ! فلذلك سميّ النحو[1] .

وواضح من هذه الرواية ومن كثير منها يشبهها حول بدايات النحو أنه بدأ بسيطًا يسيراً وكان هدفه وقاية الألسنة من الخطأ في صياغة الجملة

---

[1] ابن الانباري : نزهة الألباب ص ٤ وما بعدها

، وكانت أبوابه لا تتوخى حدود المنطق الأرسطى ورسومه بقدر ما تتوخى ما فيه الكفاية لتقويم الألسنة .

ومن آراء المعاصرين ما ذهب إليه الدكتور شوقى ضيف حيث رأى أن ما نسب إلى أبى الأسود الدؤلى في وضع النحو العربى عمل من عبث الرواة يقول في ذلك : وكل ذلك من عبث الرواة الوضاعين المتزيدين وهو عبث جاء من أن أبا الأسود الدؤلى نسب إليه حقا أن وضع العربية ، فظن بعض الرواة أنه وضع النحو ، وإنما وضع أول نقط يحرر حركات أواخر الكلمات في القرآن الكريم بأمر من زياد ابن أبيه [١] .

وظاهر الأمر في ذلك أن الدكتور شوقى ضيف لا يعترف بجهود أبى الأسود الدؤلى في وضع الأسس للنحو العربى . ويعتبر ما كان بعد أبى الأسود من جهود نحوية مجرد نظرات متناثرة ثم يرى بعد ذلك أن أول واضع للنحو العربى هو " عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى (ت ١١٧هـ) وفى ذلك قوله : فالأصل في كل علم أن تبدأ فيه نظرات متناثرة هنا وهناك ثم يتاح له من يصوغ هذه النظرات صياغة علمية تقوم على اتخاذ القواعد ما يطوى فيها أقيسة وعلل ، وأول نحوى بصرى حقيقى نجد عنده طلائع ذلك هو ابن أبى اسحاق الحضرمى [٢] .

والناظر لهذا الاتجاه يراه أثراً من آثار أ/ احمد أمين ذلك الذى ذهب إلى أن تاريخ النحو في منشئه غامض كل الغموض ، فإنا نرى فجأة كتابًا ضخمًا ناضجًا هو كتاب سيبويه ولا نرى قبله ما يصح أن يكون نواة

---

[١] د. شوقى ضيف : المدارس النحوية ص ١٦

[٢] د. شوقى ضيف : المدارس النحوية ص ١٨

تبين ما هو سنة طبيعية من نشوء وارتقاء وكل ما ذكروه من هذا القبيل لا يشفي عليلاً [1] .

ورغم ذلك فقد رأى رؤية أخرى في صنعة أبى الأسود الدؤلى فاعتبرها مرحلة من مراحل تأسيس النحو العربى وخطوة من خطوات وضعه ، فالشيخ أحمد أمين مترددًا بين الإنكار والاعتراف بجهود أبى الأسود الدؤلى في تأسيس النحو العربى .

ويبدو أنه كان متأثرًا بما ذهب إليه المستشرق الألمانى " كارل بروكلمان " ذلك الذى رأى أن ما قيل عن جهود أبى الأسود وتلاميذه في علم العربية شئ من قبيل الأساطير وأن تاريخ النحو العربى بدأ مع شيوخ الخليل بن أحمد الفراهيدى وسيبويه .

---

[1] ضحى الإسلام : ٢-٢٨٥

البيئة الأصلية للنحو

اتفق العلماء على أن العراق كانت مهداً لنشأة النحو وذلك للأسباب التالية :

١-كانت بلاد العراق موطنًا لعجم قبل الفتح ، وبعد الفتح أقبل المسلمون عليها عربًا وعجمًا ، إذا إنها تمتاز بأسباب الحياة الناعمة و رغد العيش .

٢-كانت بلاد العراق أكثر البلاد إصابة بوباء اللحن وتعرضًا لمصائبه بسبب هذا المزج بين العرب والأعاجم .

٣-أهل العراق ذو عهد قديم بالعلوم والتأليف ولهم فيها خبرة متوازنة .

وكانت البصرة أسبق مدن العراق اشتغالاً بالنحو ولا عجب إذ قيل إن مهد نشأة النحو كان في البصرة ، بل لقد احتضنت البصرة النحو زهاء قرن من الزمان قبل أن تشتغل به الكوفة التى كانت بدورها أسبق من بغداد إذ كان أهل الكوفة حينئذ يشتغلون برواية الأشعار والأخبار متفرغين لهذا ، ثم اشترك علماء المصرين البصرة والكوفة في النهوض بالنحو من عهد الخليل بن احمد شيخ الطبقة الثانية من البصريين وأبى جعفر الرواسى شيخ الطبقة الأولى من الكوفيين حتى نمت أصوله وكملت عناصره في مستهل العصر العباسى الأول على يد المبرد خاتم البصريين وثعلب خاتم الكوفيين .

وكان للبصرة الأسبقية على غيرها من مدن العراق في الاشتغال بالنحو لأن البصرة تقع على أطراف البادية مما يلى العراق فهى أقرب

مدن العراق إلى العرب الذين لم تلوث لغتهم بعامية الأمصار فعلى مقربـــة منها بوادى نجد غربًا والبحرين جنوبًا والأعراب يفدون إليها منهما ومـــن داخل البصرة ومن خارجها وليست كذلك الكوفة وبغداد فمكن هـــذا أهـــل البصرة من أن يأخذوا عن العرب دون أن يتكلفوا مشاق السفر .

بالإضافة إلى قرب سوق المربد من البصرة حيـــث تنعقـــد فيهـــا مجالس للعلم والمناظرة ويفد إليها الشعراء ورواتهم فهى تشبه سوق عكاظ في الجاهلية ينزل فيها العلماء والأدباء والأشـــراف للمـــذاكرة والروايـــة والوقوف على ملح الأخبار ، واللغويون يأخذون عن أهلها ، ويدونون مـــا يسمعون فيأخذ منهم النحويون ما يصح قواعدهم ولم تكـــن كـــذلك ســـوق الكناسة بالكوفة إذ إن ساكنيها من الأعراب أقل عددا وفصاحة ممن كـــان بالبصرة .

أسباب وضع النحو

نشأة النحو ترتبط بجذور الحياة الإسلامية ، وكان القرآن الكريم محور الدراسات والعلوم ، وهو الركيزة الأساسية .

لذا فإن نشأة العربية انطلقت من قراءة القرآن لأن القراءة القرآنية هي التي دعت إلى ظهور " علم الأصوات " الذي نضج عند العرب ، وإلى جانب هذا كان القرآن الكريم سبب ظهور " علم الغريب " .

ومن الطبيعي أن يكون القرآن أيضا سبب ظهور " علم النحو " لأن النحو دراسة للتركيب اللغوي ، ورصد للظواهر الإعرابية الناجمة عن القرائن اللفظية التي سميت فيما بعد بالعوامل النحوية ، وقراءة القرآن تعتمد على أواخر الكلمات أي الإعراب ، وقد ظهر اللحن أول ما ظهر في القضايا الإعرابية – وهذه العلوم كانت يطلق عليها اسم " العربية " وهي في الواقع علم واحد لأن دراسة الأصوات إنما هي دراسة للوحدات الأساسية التي يتكون منها التركيب اللغوي ، ولأن دراسة الكلمات الغريبة إنما هي دراسة الدلالة في مصطلح علم اللغة الحديث ، مع شئ غير قليل من الاختلاف ، أما الدراسة النحوية فهي دراسة اللغة في نظمها – وأوضاع تراكيبها والوظائف المنوطة بكلمات التركيب .

وهناك أسباب ثلاثة لنشأة النحو هي : السبب الديني ، والسبب اللغوي ، والسبب الاجتماعي.

السبب اللغوي :

يرى اللغويون أن اصل علم اللغات عند جميع الأمم هو قيام تضاد بين لغتين أو مرتين من لغة واحدة مثل لهجة العامة ولهجة الأوائل في

كتب الدين لأن التضاد بين المرتين في اللغة الواحدة يثير في الذهن موازنة بين اللهجة التى تسمى فصيحة ، واللهجة الجديدة ويحمل الناس على معرفة الصواب ، كالذى حصل في الحياة الإسلامية.

ولقد كان هناك ثلاثة مستويات لغوية هى :

١- اللغة المثالية : التى كانت تستعمل في الشعر والخطب والمواعظ وتتقيد بالإعراب وضوابطه ، فلا تخل بشئ منه ، وهذا ظاهر في قصائد الشعراء التى وصلت إلينا ، وهي تخلو من الظواهر اللهجية المحلية كالعجعجة والكشكشة ، وتبيين الهمز ، وهى اللغة التى نزل بها القرآن الكريم .

٢- اللغة البدوية :

وهى التى كانت تستخدم فى بوادى نجد وتهامة والحجاز وما جاورها وهى أيضًا تعنى بضوابط الإعراب ولا تخل به وهذا ظاهر فيما نقله النحويون من كلام الذين سموهم فصحاء وإذًا فإن اللغة البدوية هى اللغة المثالية نفسها لا تختلف عنها إلا فى استعمال اللهجات المحلية التى تختلف بين منطقة وأخرى كالكشكشة وأضرابها ، وعلى الرغم من أن بعض هذه العادات قد تظهر فى إنشاد الشعر إلا أنها لم تكن تعتمد عليه لأن بعضها يخل بالوزن الشعرى كتخفيف الهمز الذى كانت عليه قريش .

٣- لغة الحواضر :

وهى التى كانت تستخدم فى المدن كمكة والمدينة والطائف والحيرة وأطراف الشام ، وهذه ليست على مستوى واحد بل يختلف بعضها عن بعض ، وتتفاوت حظوظها قربًا من اللغة المثالية وبعدًا عنها ، فلغة مكة

أفصح لهجات العرب من الناحية الصوتية لأنها تخلو من العـــادات التـــى صارت مستهجنة فى اللهجات الأخرى ولكنها إلى ذلك تخفف الهمـــزة ولا تظهرها وهذا مخالف للغة المثالية التى نجدها فى الشـــعر وفـــى أصـــح قراءات القرآن .

أضف إلى ذلك أن معجمها اللغوى تأثر بلغات الجاليات التى كانت تستوطن مكة كالحبشية والرومية والفارسية وقد ازداد ذلك فى الإسلام (١) إذ بدأ الناس فيها و فى المدينة والطـــائف يتخففـــون مـــن بعـــض قيـــود الإعراب .

أما لغة الحيرة فقد كانت على مقربة من مواطن الفارسية ومتـــأثرة بها ولا نعرف شيئا عن قواعدها ونظمها ، ومثلها لغة القبائل العربية التى كانت تستوطن مناطق فى بلاد الشام إذ كانت متأثرة بالآراميـــة المحكيـــة هناك .

وكانت اللغة المثالية شائعة فى الجزيرة العربية مـــن أدناهـــا إلـــى أقصاها ومستأثرة باهتمام العرب جميعًا وكانوا يسمونها هى ولغة البوادى "العربية " وقد صاغ بها الشعراء البداة خاصة غر قصائدهم وكان ســـهلاً على الأعرابى أن يحيط بها لأن لغته نفسها مع التخلى عن عادة يســـهل تجنبها ، أما عرب الحواضر فكانوا يسلكون إلى تعلمها واحدة من سبيلين : أولهما أن يرسلوا أطفالهم إلى البادية لينشأوا عليها ويأخذوها مـــن أفـــواه أصحابها ، والثانية : أن يتعلموها فى الكتاتيب .

---

(١) لجاحظ : البيان والتبين ١/١٨-١٩

ولما جاء الإسلام نزل بها القرآن الكريم فزادها قدسية فى نفوس العرب وصارت العناية بها استجابة لمؤثرين : أولهما دينى وثانيهما فى تعد اللغة فى نظر العربى المسلم مجرد متعة فنية فى شعر أو فى موعظة بل صارت إلى جانب ذلك أساسًا لا بد منه فى فهم القرآن الكريم والنفوذ إلى تعاليمه .

ذكروا أن عمر بن الخطاب مر برجلين يرميان فقال أحدهما للآخر أسبت : فقال عمر : سوء اللحن أشد من سوء الرمى .

وقيل لعبد الملك بن مروان : أسرع إليك الشيب فقال : – شيبنى ارتقاء المنابر و مخافة اللحن .

إن اللحن وانتشاره بين المتكلمين بالعربية وسريانه فى منطلق الكلام وقراءة القرآن كان سببًا من أسباب وضع النحو وتأسيسه ، ويرى بعض المحدثين أن محاولة أبى الأسود الدؤلى فى تأسيس النحو العربى وما صنعته من رسم إعراب القرآن الكريم عن طريق نقط أواخر الكلمات فيه كان اقتباسًا من السريان وغيرهم ؛ حيث كانت البصرة ملتقى العلماء من الفرس والسريان والهنود . ومحاولة أبى الأسود واقتباس الحركات والنقط فى العربية كلاهما بدأ فى البصرة وكانت البصرة فى ذلك الحين موضع التقاء العرب الفرس والسريان وأهل الهند وكانت لغة العلم والمعرفة فى ذلك العصر اللغة السريانية .

وهناك من يذهب إلى أن للمنطق الإغريقى والفلسفة الإغراقية أثراً فى صرف العربية ونحوها ، وكان ذلك بفضل اللغويين السريان الذين كانوا على صلة وثيقة بالعرب وأن نظام التنقيط للتفرقة الصوتية بين

الحروف المتشابهة كان من صنع السريان المشارقة ، وهو النظام الذى كان له الأثر الواضح فى التنقيط عند العرب ذلك النظام الذى عنى به أبو الأسود الدؤلى حيث قال لكاتبه : خذ المصحف وصبغا يخالف المداد فإذا فتحت شفتى فانقط واحدة فوق الحرف وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف وإذا كسرتها فاجعل النقطة فى أسفله ، فإذا اتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين ، فابتدأ المصحف حتى أتى على آخره .

دلالات مصطلح اللحن :

ترد لفظة " اللحن " فى اللغة للدلالة على معان عدة نذكر منها :
(أ) الغناء وترجيع الصوت وشاهده قول الشاعر :

وها تقين بشجو بعـــدما ســـجعت   ورق الحمـــام بترجيع وإنان
باتا على غصن بان فى ذرا فنن   يـــــــرددان لحونـــــــا ذات أوان

(ب) التورية والرمز : وهو أن تريد الشئ فتورى عنه أو ترمـــز إليـــه بقول آخر وشاهد ذلك قول الشاعر :

ولقد لحنت لكـــم ليكمـــا تفقهـــوا   ووحيت وحيا لـــيس بالمرتـــاب

قال الشريف المرتضى : إنه أراد الكناية عن الشئ ، والتعـــريض بذكره ، والعدول عن الإيضاح عنه .

(ج) معنى القول وفحواه وشاهد ذلك قوله تعالى : " ولتعرفهم فـــى لحـــن القول "[1] أى معناه .

(د) الفطنة والذكاء : وشاهد ذلك قول الرسول (ص) : إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحـــو مـــا أسمع منه ..

ويؤيد ذلك ما جاء فى الرواية الأخرى : فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ...

---

[1] محمد : ٣٠

وقول الشاعر :

متعـــوذ لحـــن يعيـــد بكفـــه		قلما على عسب ذبلـــن وبـــان

(هـ) اللهجة الخاصة : وشاهده قول الشاعر :

وقوم لهم لحن سوى لحن قومنـــا		شكل – وبيت الله – سنا نشاكله

وقول أبى سهدية ردًا على اليزيدى حين قال : "وليس ملاك الأمـــر إلا طاعة الله برفع " طاعة " على لغة تميم وكان أبو مهدية حجازيًا ينصب خبر " ليس " بعد إلا فرد على اليزيدى قائلاً :

" ليس هذا من لحنى ولا من لحن قوما " أي : ليس هذا من لغتـــى ولا من لغة قومى .

(ز) الخطأ فى اللغة : وشاهد ذلك قول الشاعر :

لبست الأمير أطـــاعنى فشـــفيته		من كل من يكفى القصيد ويلحن

وقول الشاعر :

وألحن الناس كل الناس قاطبـــة		وكان يولع بالتشديق والخطـــب

وقول الشاعر :

فزت بقدحى معرب لـــم يلحـــن

ولعل هذا المعنى وهو الخطأ فى اللغة قد ظهر متأخرًا عن غيره من المعانى الأخرى حيث لم تظهر الحاجة إليه إلا بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم وتنبه العرب إلى شيوع الخطأ فى لغتهم العربية .

وعرف أحمد بن فارس اللحن بقوله : فأما اللحن – بسكون الحاء – فإماله الكلام عن جهته الصحيحة فى العربية يقال لحن لحناً هذا عندنا من الكلام لمولد لأن اللحن محدث ، لم يكن فى العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة .

وعرف الزمخشرى أيضا اللحن بمعنى الخطأ فى اللغة حيث قال: "لحن فى كلامه إذا مال به الإعراب إلى الخطأ " .

مظاهر اللحن والنفور منه

أتخذ اللحن فى اللغة مظهرين متمايزين هما :

(أ) الخطأ فى الأصوات والصيغ والبنية ويمكن أن نطلق عليه : الخطأ فى الصرف .

(ب) الخطأ فى الإعراب : ويمكن أن نطلق عليه : الخطأ فى النحو .

فمثال الخطأ فى بنية الكلمة قول زياد النبطى حين سئل لم ابتدعت هذه الأتان : أركبها وتلد لى بفتح اللام وهو يريد وتلد لى بكسرها فى العربية .

أما الخطأ فى إعراب الكلمات فقد عرف بأخره حيث لم يتنبه له العرب إلا بعد أن فتحوا الأمصار ودانت لهم الأقطار ، واختلطوا بأهالى هذه البلاد المفتوحة اختلاطًا مستمرًا فى البيوت والأسواق والمناسك والمساجد ، وتصاهروا ، واندمجوا ، حتى تكون منهم شعب واحد واقتضى كل ذلك أن يستمع بعضهم من بعض ، وأن يتفاهموا فى كل ما يتصل بهم ، ولغة التخاطب الوحيدة بينهم فى كل ما يحيط بهم فى العربية ، فكان لزاما على غير العربى أن تكون لغته العربية ، مهما عالج فى ذلك وعانى ، كما كان لزاماً على العربى أن يترفق بغير العربى ، ويتريث معه فى التخاطب لضرورة التعاون بين الطرفين فكل منهم يسمع من الآخر والسمع سبيل الملكات اللسانية ، فما اللغة إلا وليدة المحاكاة وما يصل إلى السمع .

وبطول هذا الامتزاج تسرب الضعف إلى العربية وتولد من هذا أن تسرب اللحن إلى اللغة العربية .

ومن مظاهر الخطأ فى الإعراب : قول الوليد بن عبد الملك لغلامه – وكان بحضرته عمر بن عبد العزيز – يا غلام ادع لى صالح .

فقال الغلام : يا صالحًا ، فقال الوليد : ويحك يا غلام ، أنقص من صالحك ألفا فقال عمر : وأنت يا أمير المؤمنين فزد فى صالحك ألفا[1] .

وهو يقصد أن صالح فى الجملة الأولى مفعول به أما فى الجملة الثانية جملة النداء فصالح علم مفرد مبنى على الضم .

ومن مظاهر إنكار العرب للحن ونفورهم منه :

قول الرسول (ص) عندما لحن رجل بحضرته : " أرشدوا أخاكم فقد ضل[2] " وقول الرسول (ص) : " أنا أفصح العرب ، ولدت فى قريش ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر فأنى يأتينى اللحن [3] .

وقول أبى بكر الصديق رضى الله عنه : " لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أقرأ فألحن [4] .

ولقد روى أن أبا موسى الأشعرى أرسل إلى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – كتابا وقد بدأه كاتبه أبو الحصين بن أبى الحر العنبرى بقوله : من أبو موسى الأشعرى .. فكتب إليه عمر : أن قنع كاتبك سوطاً[5] .

---

[1] العقد الفريد ٣٠٩/٢ ، البيان والتبيين ١٦٧/٢

[2] كنز العمال : ١٥١/١

[3] المزهر : ٢٤٦/٢

[4] الخصائص : ١٠٨/١

[5] الخصائص : ٨/٢

وسمع أعرابي مؤذنًا يقول : أشهد أن محمداً رسول الله بنصب رسول فقال له وحك : يفعل ماذا ؟ [1] .

ودخل أعرابي السوق فسمعهم يلحنون فقال : " سبحان الله ! يلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح " .

وروى عن مالك بن أنس بن مالك أنه قال : الإعراب حلى اللسان فلا تمنعوا ألسنتكم حليها " .

وقال عبد الملك بن مروان : " اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه " .

وقيل له لقد عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين فقال : شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن " .

إن جرثومة اللحن قد انتشرت في الحاضرة حتى أصبح الناس يعدون اللاحنين وينبهون إليهم كما صاروا يتهاجون باللحن ويتفاخرون ببراءتهم منه وكذلك أخذوا يعدون الفصحاء ممن لم يتسرب اللحن إليهم ، ولم يظهر فـ كلامهم حيث يقول الاصمعي : أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية والحجاج أفصحهم .

ومعلوم أن الحجاج كان في الذروة من الخطابة والبيان والفصاحة والبلاغة .

فاللحن هو إمالة الكلام عن وجهة الصحيح في العربية ، واللحن يصيب اللغة في الأصوات وعدم نطقها بطريقة صحيحة والصيغ الصرفية

[1] عيون الأخبار : ١٥٨/٢

كالوهم فى استعمال أحد الأبنية والمقصود غيره ، والتراكيب النحوية وبناء الجملة وما يتصل بالإعراب والخلط فى استعمال المفردات وعدم التفريق بين معانيها .

ويعد الخطأ فى الإعراب أول مظهر من مظاهر اللحن فى نشأته الأولى ، لذلك يقول أبو الطيب اللغوى : " اعلم أن أول من اختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم الإعراب " .

وقد كان اللحن فى المراحل الباكرة من الحياة اللغوية عند العرب بسيطا ويمكن السيطرة عليه بواسطة التعليم والتلقين والإرشاد إلى الصواب، ولكن مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية واختلاط العرب بغيرهم من الشعوب والأجناس غير العربية أصبح اللحن أكثر فى كلام أهل الحضر ، لذلك يقال إن الفراء وقع فى لحن يحضره هارون الرشيد فاعتذر عند بقوله : إن طباع أهل البر والأعراب وطباع أهل الحضر اللحن فإذا تحفظت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت .

والوقوع فى اللحن يعد من الدوافع الرئيسية فى نشأة الدراسات اللغوية عند العرب على وجه العموم وعلم النحو على وجه الخصوص .

وإذا كان القدماء يربطون نشأة النحو بحفظ القرآن الكريم من اللحن فإن الدرس اللغوى عند العرب قد نشأ فى رحاب الكتاب العزيز لأن العلماء المسلمين توقفوا أمام النص المقدس محاولين فهمه والتوصل إلى معانية الشريفة وهذا لا يتأتى لهم إلا بدراسة اللغة الشريفة التى بها نزل ، لذلك وجدنا علومًا لغوية كثيرة نشأت فى رحابه متخذه من آياته الكريمة نقطة الانطلاق ومن بينها معرفة معانى ألفاظه وإعرابه وقراءاته وسواها من العلوم اللغوية .

السبب الاجتماعي :

ويرجع فساد اللغة العربية فى الحواضر إلـى الاختـلاط بـالأمم الأجنبية لأن احتكاك اللغات بعضها ببعض يؤدى إلى تبادل التأثير ، وحين نستعرض الأمصار الإسلامية فى الحجاز والعراق والشام نجـد ظـاهرة جديدة تدخل حياة العرب فى هذين القرنين هى اختلاطهم بالشعوب الأخرى : فى السكنى والبيت ، والجيش ، والسـوق ، وسـائر المرافـق العامـة والخاصة ففى مكة كان الناس ثلاث طبقات هى :

١- العرب القرشيون ، وهم سادة الناس ، ورعاة الحرم .

٢- العرب غير القرشيين وهم الذين كانوا يحالفون رجالا من قـريش أو يوالونهم ، وفى هؤلاء اليمنى والمضرى .

٣- غير العرب وهم قسمان ، الريفي ورجال الجاليات الأجنبية .

أما الرقيق فكان يجلب من أسواق النخاسة ، ومعظم الأرقـاء فـى مكة سود من أفريقيا ، وفيهم البيض الذين يؤسرون فـى الحـرب وتـدل الأخبار على أن عدد هؤلاء كان كبيرًا جدًا ، فقد ذكروا أن هندًا بنت عبـد المطلب عتقت فى يوم واحد أربعين عبداً .

أما المدينة فقد كان يجاور العرب فيها جماعة مـن اليهـود وهـم عبرانيون نزحوا إلى بلاد العرب وأقاموا فيها وبعد أن هاجر إليها الرسول (ص) وفدت إليها العناصر الأجنبية لتعيش بجوار العرب وهم بين يمنـى كالأوس والخزرج ، ومضرى كقريش .

وكانت العراق منذ الجاهلية موطنًا لأجناس شتى ففيها الأنباط وهم فى الأصل عرب ، ولكنهم نزحوا إليها من شرقى الأردن وكانوا يستعملون

الآرامية فى كتاباتهم ويدعون أنهم من الفرس وفيها أيضًا الفرس وفيها عرب العبرة ، ويونان ، وهنود وعبيد من أفريقيا ، وكانت البصرة تجمع قبائل عربية شتى من تميم ، وبكر ، وهذيل ، والأزد ، وعبد القيس ، وكل منهم يتفرع إلى بطون وأفخاذ ويقيم بجوارهم الفرس والنبط والهنود .

أما الكوفة فقد كان العنصر العربى هو المؤسس فى بادئ الأمر وقد غلبت عليه القبائل اليمنية ، وعاش بجانبها أخلاط من عرب الشام فيهم المتحضرون كعرب قريش وفيهم عرب نصارى من بنى تغلب ونجران وقد جاور العرب الفرس واحتكوا بهم فى معظم جوانب الحياة .

أما فى بلاد الشام فقد كانت بعض القبائل العربية موالية للروم منذ الجاهلية كقبائل غسان ، ولخم ، وجذام ، وقد حاربوا المسلمين فى اليرموك بقيادة جبلة بن الأيهم . اضف إلى ذلك أن هناك بطوناً من ربيعة ومضر واليمن تتوزع فى مناطق متفرقة ، كالجزيرة والرقة وضواحى حلب .

ولما جاء الإسلام ، وفتحت الشام ، استقرت بطون من القبائل الفاتحة فى الأمصار والثغور ، ونشئت وحدة القبيلة ، فكان هناك أزد الشام ، وأزد العراق ، وخثعم الشام وخثعم العراق ، وقيس دمشق وقيس وحمص ، وإلى جانب هذه الأخلاط العربية كان الفرس يستوطنون حمص وأنطاكية وبعلبك ، ثم انتقل بعضهم إلى سواحل شامية كعكا وصور .

هذه الأخلاط البشرية تجاورت فى الأصقاع الإسلامية ، واحتكت لغاتها الكثيرة بعضها ببعض ، فاتسعت الهوة بين اللغات المحكية واللغة المثالية التى تستخدم فى العبادة وفى دواوين الدولة ، على أننا نستطيع أن نتصور الوضع اللغوى من خلال ثلاث لغات كانت أكثر بروزًا فى

المجتمع آنذاك : اللغة العربية – اللغة الفارسية – اللغة السريانية ، هذه اللغات الثلاث ، ولغات أخرى غيرها أقل شأنا منها عاشت فى بيئة واحدة هى حواضر العالم الإسلامى ، فأدى ذلك إلى وضع لغوى تتداخل فيه اللغات واللهجات ، وتذوب من كل منها أصالتها وتغدو لا هى إلى العربية ولا هى إلى الفارسية ، ولكنها لغة هجينة لا تصلح لغير التخاطب والتعبير عن الحاجات العارضة ، مما أدى إلى اتساع الهوة بين اللغة المحكية واللغة الفصيحة ، ومثل هذه الهوة تخيف المجتمع حين تكون أسسه قائمه على العقيدة الدينية التى لا تفهم ولا تصان إلا باللغة المقدسة التى هددت أصالتها ، وكادت تذوب .

السبب الدينى

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : " إعربوا القرآن والتمسوا غرائبه " ، ونقلوا عن أبى بكر الصديق قولين ربما كان فى الأصل قولا واحدا الأول قوله : "لأن أقرأ فاسقط خير من أن أقرأ فألحن والثانى : قوله : " لأن أعرب آية من القرآن أحب إلى من أن أحفظ آية " .

ونقل عن عمر بن الخطاب فى هذا أقوال كثيرة منها قوله لجماعة كانوا يتلون القرآن الكريم : " اقرءوا ولا تلحنوا "وقوله : " تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه" .

وجاء عن عبد الله بن مسعود أنه قال : " أعربوا القرآن فإنه عربى والله يحب أن يعرب "، وهذه الدعوات تدل على واقع لغوى عاناه ذو الغيرة على لغة القرآن منذ عصر الرسول (ص) وازداد سوءًا فى عهد صحابته وتابعيهم ، وفيما ذكره المؤرخون فى حديثهم عن أسباب وضع النحو ما يحمل الظاهرة القرآنية نفسها، فقد تحدثوا عن أعرابى قدم إلى المدينة يطلب أن يقرأ القرآن فأقرأه بعضهم " إن الله برئ من المشركين ورسوله " بكسر اللام عطفًا على المشركين فقال الأعرابى : – إن يكن الله بريئا من رسوله فأنا أبرأ منه أيضًا فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأمر ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة وأمر أبا الأسود أن يضع النحو " [1]

---

[1] القفطى : انباه الرواة ١/١٥

- الزجاجى : الإيضاح فى علل النحو ٨٩
- القرطبى : الجامع لأحكام القرآن الكريم ١/٢٤

الطبقات الأولى من النحاة ومراتبهم

(١) نصر بن عاصم الليثى

وكان فقيهًا عالمًا بالعربية فصيحا وقال عنه محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرى ت ١٢٤ : - " إنه ليفلق فى العربية تفليقا " أى يأتى بالعجب .

ويعود الفضل إلى نصر بن عاصم فى تغيير ترتيب الأبجدية إلى الترتيب المعروف الآن .

إن " أبجد " هى أولى الكلمات الست التى جمعت فيها حروف الهجاء عند الساميين وتلك الكلمات الست هى " أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت " وعندما استخدم العرب هذا الترتيب الأبجدى وضعوا الحروف العربية التى لم ترد فى آخر الترتيب وتجمع تلك الحروف فى كلمتين هما ثخذ ضظغ وتسمى الحروف الروداف .

ونشير إلى أن نصر بن عاصم أعاد ترتيب الحروف على أساس شكلى فوضع التاء والثاء إلى جانب الباء ووضع الحاء والخاء إلى جانب الجيم ٠٠٠٠الخ وأخبار نصر بن عاصم قليلة وقد أشارت إلى أنه أقام بالبصرة وفيها لقى حتفه سنة ٩٠ هـ .

٢ – يحيى بن يعمر

أخذ يحيى النحو عن أبى الأسود الدؤلى وهو عند بعض العلماء أول من وضع النحو بعد أبى الأسود ، بل قيل إن أبا الأسود لما وضع باب الفاعل والمفعول زاد فى ذلك الكتاب رجل من بنى ليث أبوابًا ثم نظر فإذا فى كلام العرب مما لا يدخل فيه فأقصر عنه فيمكن أن يكون الرجل الذى من بنى ليث يحيى بن يعمر إذ كان عداده فى بنى ليث ، وهو عالم تابعى لقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما وروى عنهما الحديث النبوى وروى عنه قتادة بن دعامة السدوسى التابعى وذكر يونس بن حبيب أن الحجاج قال ليحيى بن يعمر أتسمعنى ألحن على المنبر قال الأمير أفصح من ذلك فألح عليه فقال حرفًا ، قال: أى ، قال : فى القرآن ، قال الحجاج ذلك أشنع له فما هو قال : تقول قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم ... إلى قوله .... أحب[1] فتقرؤها أحب بالرفع والوجه أن تقرأ بالنصب على خبر كان قال الحجاج : لا جرم إلا تسمع لى لحنًا أبدًا فألحقه بخراسان .

وقد كتب يزيد بن المهلب الذى ولى خراسان إلى الحجاج : :" إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم ، أسرنا طائفة وقتلنا طائفة واضطررناهم إلى عرعرة الجبل ونحن بحضيضه وأثناء الأنهار فلما قرأ الحجاج قال : مال بن المهلب ولهذا الكلام ! حسدًا له قيل له إن ابن يعمر هناك . قال : فذاك إذًا .

(١) التوبة : ٢٤

ويحيى بن يعمر فصيح عالم بالغريب وكان يلجـــأ إلـــى اســـتعمال الغريب اللفظى فى حديثه ، وتوفى يحيي سنة ١٢٩هـــ بخراسان .

٣- عبد الرحمن بن هرمز

كان يكنى أبا داود ، ويلقب بالأعرج ، وقد تردد هذا اللقب كثيرا في كتب الطبقات والتراجم دون أن يذكر اسمه لأنه اشتهر به ، وابن هرمز من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش ، وأخذ النحو عن أبي الأسود في البصرة ، ولكنه عاش في المدينة واتصل بالصحابة الكرام لتلقى القرآن الكريم والحديث الشريف ، فأخذ القراءة عن أبي هريرة وعبد الله بن عباس، وأصبح هو نفسه مقرءًا وقرأ عليه الناس ، وتلمذ له نافع بن أبي نعيم ، أشهر مقرئي المدينة وأحد القراء السبعة .

ويروى أن مالك ابن أنس أختلف إلى ابن هرمز عدة سنين في علم لم يبينه في الناس ، فمنهم من قال تردد إلي لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ، وقيل كان ذلك من علم أصول الدين ،وما يرد به مقالة أهل الزيغ والصلاة ، وقال أهل العلم عن أبي هريرة : أنه أول من وضع علم العربية والسبب في هذا القول أنه أخذ عن أبي الأسود الدؤلي ، وأظهر هذا العلم بالمدينة وهو أول من أظهره وتكلم فيه في المدينة وكان من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش ، وما أخذ أهل المدينة إلا منه ولا نقلوه إلا عنه ، وقد ذكر الرواة أن أبي هرمز مات في الإسكندرية سنة ١١٧هـ على الرغم من أنه عاش في المدينة .

٤- عنبسة الفيل

هو عنبسة بن معدان ، وكان معدان رجلاً من أهل ميسان (أقليم واسع بين البصرة وكوفة) قدم البصرة وأقام بها وكان يقال له معدان الفيل وقد روى ياقوت في معجم الأدباء " سبب تسميته بمعدان الفيل فقال : كانت لزياد بن أبية فيلة ينفق عليها في كل يوم عشرة دراهم أقبل رجل من أهل ميسان يقال له معدان فقال : ادفعوها إليّ وأكفيكم المؤونة فأعطيكم عشرة دراهم كل يوم . فدفعوها إليه فأرى وأتين قصراً ونشأ ابن يقال له عنبسة وفروى الأشعار وفصح ، وروى شعر جرير والفرزدق وانتمى إلى بني أبي بكر بن كلاب ، ويعد عنبة الفيل واحداً من أبرع تلاميذ أبي الأسود على حد تعبير أبي عبيدة الذي قال : اختلف الناس إلى أبي الأسود يعلمون منه العربية فكان أبرع أصحابه عنبسة .

٥- ميمون الأقرن

تشير كتب الطبقات والتراجم إلى أن ميمون الأقرن رأس النحويين بعد عنبسة الفيل وكانت له حلقة نحوية وقد تخرج فيها ابن أبي اسحاق الحضرمي .

عبد الله بن أبى اسحاق

يعد عبد الله بن أبى أسحاق مولى آل الحضرمى (ت ١١٧هـ) أول نحوى تربط كتب الطبقات والتراجم بينه وبين القياس ، ومن الروايات المتداولة بكثرة فى تلك الكتب دون اختلاف بينها قولها : أنه أول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل ، ويمكن التوصل من تلك الرواية إلى ثلاثة أمور يعد عبد الله بن ابى اسحاق رائداً فيها هى :

١- أنه أول من بعج النحو أى فتقه وشقه ، والمقصود بذلك أنه أحد الرواد الأوائل الذين أتوا بعد مرحلة نشأة النحو ، وكانت لهم بعض الأراء والاجتهادات التى استحسنها معاصره بالإضافة إلى توقفه أمام بعض الشواهد بالنقد والتحليل ، والدليل على ذلك ما كان بينه وبين الفرزدق، وكثرة تعرضه للفرزدق لو روي بعض الشواذ النحوية فى شعره .

٢- أنه أول من مد القياس إذ زاد فيه ، ويمكن أن نتوصل من تلك الراوية إلى أن ابن أبى أسحاق لم يبتكر القياس أو يبتدعه ، وإنما هو من الأمور التى كانت تطبع الحياة الفكرية عند الأوائل من العلماء المسلمين ولم يكن وقفاً على النحو والنحاة بل إنهم استعاروه من أصول الفقه ، إنه أول من شرح العلل أى بسطها ووسعها والمقصود بذلك أن ابن أبى اسحاق له الفضل فى التوسع فى استخدام العلة والإكثار من التعليل ولم يكن المبتكر للعلة النحوية على وجه العموم .

وتقول بعض الروايات عن ابن أبى أسحاق أيضاً أنه كان أشد تجريداً للقياس ويفيد فى فهم تلك الرواية التعرف على معنى "التجريد"

ولكن ما المقصود بالقياس الذى زاد ابن أبي أسحاق فى استخدامه وتوسع فى استعماله ؟

المقصود بالقياس عنده اطراد القواعد النحوية وعدم وجود شذوذ فى الاستعمال داخل أى نص من النصوص اللغوية ، وقد دفعه تمسكه بالقياس إلى تخطئة الشعراء الذين كانت لديهم بعض الكلمات التى خرجت عن الإعراب الصحيح من وجهه ، نظرة ونقدم بعض الأمثلة من انتقاداته الأعرابية للفرزدق – لقد سمعه ينشد :

وعض زمان يابن مروان لم يدع   من المال إلا مسحتًا أو مجلف .

فرد عليه الرفع لكلمة " مجلف " لأن القياس النحوى يستوجب نصبها عطفا على " محسنا " ، وتشير كتب الطبقات والتراجم إلى أن ابن أبى اسحاق سأل الفرزدق : علام رفعت " أو مجلف " ؟

فقال الفرزدق : على ما يسوءك وينوءك ، علينا أن نقول وعلكيم أن تتأولوا ، والذى يلفت النظر أن النحاة استجابوا لدعوة الفرزدق وقدموا أربعة تخريجات لهذا الرفع لكلمة " مجلف " جاءت على النحو الآتي :

١- أن قول " مجلف " مبتدأ حذف خبره وتقدير الكلام أو مجلف كذلك .

٢- قوله " مجلف " فاعل لفاعل محذوف دل عليه سابق الكلام ، والتقدير و بقى مجلف لأن قوله " لم يدع إلا مسحتًا " معناه بقى مسحت .

٣- قوله " مجلف " معطوف على قوله " عض " فى أول البيت وهو مصدر ميمى بمعنى " التجليف " وليس اسم مفعول وتقدير الكلام : وعض زمان وتجليفه لم يدع من المال إلا مسحتًا .

٤- أن قوله " مسحتًا " اسم مفعول منصوب على أنه مفعول به لقوله " لم يدع " وفيه ضمير مستتر نائب فاعل أى مسحتصا هو .

وقوله " أو مجلف " معطوف على الضمير المستتر فى " مسحتا " .

يقول الفرزدق فى مديح عبد الملك بن مروان :

مستقبلين شـمال الشـام تضـربنا بعاصب كنـديف القطـن منثـور

علـى عمائمنـا يلقـى وأرجلنـا على زواحف تزجـرا مغهـارير

وقد اختلف الرواة فى سنة وفاة عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى فذكروا أنه مات سنة تسع وعشروين ومئة أو سنة سبع عشرة ومئة ، وهو فى الثامنة والثمانين من عمرة .

ويرجح الرواة أنه مات سنة ١١٧هـ ، ويجمعون على أنه عمـر ثمانيا وثمانين سنة ، وهذا يعنى أنه ولد سنة تسع وعشرين للهجرة ، وأنه كان فى الأربعين يوم مات أبو الأسود الدؤلى ، وعلى الرغم من هـذا لا يذكرونه من تلاميذ أبى الأسود ، ويزعمون أنه أخذ النحو عـن ميمـون الأقرن ، وأخذ القراءة عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم ، وأنه أخـذ عن أبى حرب بن أبى الأسود .

وقد كان الحضرمى كثير التصدى للفرزدق والتعـريض بأخطائـه حتى أغضبه وحمله على هجائه – قال له يومًا علـى أى شـئ رفعـت " مجلف " فى قولك :

إليك أميـر المـؤمنين رمـت بنـا هموم المنى والهوجـل المتعسـف

وتمضى زمان يا بن مروان لم يدع من المال إلا مسـحتا أو مجلـف

فقال له الفرزدق : على ما يسوءك وينوءك علينا أن نقول وعليكم أن تتألوا .

وقد كانت حلقته اللغوية فى المسجد الجامع إلى جانب حلقة المحدث محمد بن سيرين ، وكان ابن سيرين يكره النحاه ، ويقول : لقد بغض إلينا هؤلاء المسجد وبلغ أبن اسحاق أنه يعيب عليه تفسير الشعر ويقـول سـا علمه بإرادة الشعر ؟ فقال ابن ابى اسحاق : إن الفتوى فى الشعر لا تحـل حراما ولا تحرم حلالاً وإنما نفتى فيما استتر من معانى الشعر وأشكل من غريبه وإعرابه بفتوى سمعناها من غيرنا .

أو اجتهدنا فيها آراءنا فإن زللنا أو عثرنا فليس الزلل فـى ذلـك كالزلل فى تعبير الرؤيا ، ولا العثرة فيها كالعثرة فى الخروج عما أجمعت عليه الأئمة من سنة الوضوء ، وكرهته الجماعة من الاعتداء فى الطهور فبلغ ذلك ابن سيرين فأقصر عما كان من الإفراط فى الوضوء وكـان إذا جاءه الرجل يسأله عن الرؤيا قال : هات حتى أظن لك وكان ابـن أبـى اسحاق – بعد أن بلغه كلام ابن سيرين – يقول : أظن الشـاعر أراد كـذا واللغة توجب كذا[1] .

وللحضرمى فى تاريخ النحو العربى أهمية كبيرة لا لأنه بلـغ بـه مرحلة النضج والكمال بل لأنه أول من وضع فيه أصولاً يمكن أن تيسـر لمن يجئ بعده أن يبلغ هذه المرحلة ، فهو أول نحوى حـاول أن يسـتخدم الرأى فى دراسة اللغة بعد أن كانت قائمة على الأثر والرواية ، وهو فـى

---

[1] القفطى : انباه الرواه على انباه النحاة ٢/١٠٦-١٠٧

هذا متأثر بما دخل الفقه الإسلامي من استخدام الاجتهاد والرأي في الفتاوى وتحليل النصوص المنقولة وتأويلها .

أما مصادر نحوه فمتنوعة أولها : ما وفر في أذهان القدماء من الطباعات عنه وثانيهما : ما نقله عنه النحاة من نصوص وآراء كالذي نجده في كتاب سيبوية ومجاز أبي عبيده . والثالث ما تحمله قراءاته القرآنية من أوجه نحوية ولغوية .

عيسى بن عمر الثقفى

هو مولى خالد بن الوليد المخزومى ، نزل فى ثقيف ، وأخذ عن ابن أبى اسحاق وقد توفى عيسى سنة ١٤٩هـ ، وتشير كتب الطبقات والتراجم إلى أن عيسى صنف كتابين فى النحو هما " الجامع " "والإكمال" وفيهما يقول الخليل بن احمد وكان الخليل قد أخذ عنه :

ذهب النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال ، وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

ولكن هذين الكتابين مفقودان ، وإن كان المبرد (ت٢٨٥هـ) قد أشار إلى أنه قرأ أوراقًا منهما فى حين أن السيرافى ت ٣٦٨هـ يقول " لم يقعا إلينا ، ولا رأينا أحداً ذكر أنه رآهما " .

ويعد عيسى بن عمر واحداً من النحاة الأوائل الذين اهتموا بسماع المادة اللغوية وأخذها عن مصدرها المباشر ، لأنه اتصل بالأعراب الذين اختلفوا إلى البصرة ونزلوا إلى سوق المربد وكان يسألهم ويروى عنهم ما سمعه ، لذلك اخذ عنه جيل من كبار علماء اللغة والنحو الكثير من الروايات والشواهد ، لأنه مصدر ثقة ، ولأنه لم يكن ليروى إلا ما سمع ؛ ومن أمثلة ذلك ما حكاه سيبويه عنه من استعمال بعض العرب لـ " إذن "

ويعد عيسى بن عمر واحدًا من أهم تلاميذ ابن أبى اسحاق وقد تأثر به فى استخدام القياس الذى يعنى اطراد القاعدة النحوية ، وعدم وجود أى

شذوذ فى الاستعمال ، لذلك لجأ إلى تخطئه بعض الشعراء من الذين عاشوا فى العصر الجاهلى مثل النابغة الذبيانى فقد عاب عليه رفع كلمة " نافع " فى قوله :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى انيابها السم نافع

ويرى أن حقها النصب على الحال كما فى الجملتين : هذا أول فارس مقبلاً وهذا رجلاً منطلقًا ، وتعليل ذلك عنده أن الجملة الأسمية الواقعة قبل الحال قد استوفت ركنيها وتم الإسناد قبلها .

واستطاع عيسى بن عمر التوسع فى استعمال القياس فى جمل تركيب نحو على آخر ، أى أنه قياس ينظر فى الاستخدام اللغوى ويعلله مع التطبيق فى الشواهد المختلفة ومن أمثلة ذلك ما نجده فى تعليق سيبويه على قول الأحوص :

سلام الله يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام

قال سيبويه وكان عيسى بن عمر يقول : يا مطراً ، يشبهه بقوله يا رجلاً ، يجعله إذا نون وطال كالنكرة ولم نسمع عربيًا يقول وله وجه ن القياس إذا نون وطال كالنكرة[1] .

ويقترن القياس عند عيسى بن عمر بالتأويل الذى يبيح عطف المفرد على موضع الجملة ، ومن أمثلة ذلك الخلاف الذى يتصل بقول الفرزدق :

---

[1] الكتاب : ١٢٩/١

ألم ترني عاهـدت ربـي وأنني لـبين رتـاج قائمـا ومقـام

على حلفة لا أشتم الـدهر مسـلما ولا خارجـا مـن ى زور كـلام

حول إعراب " خارجًا " وقبل أن نبين رأى عيسى نشـير إلـى أن الذى عليه المحققون ان خارجا مفعول مطلق ، والأصل : لا يخرج خروجًا ثم حذف الفعل وأناب الوصف عن المصدر ، لأن المراد أنه حلف بين باب الكعبة المشرفة وبين مقام إبراهيم عليه السلام أنه لا يشـتم مسـلمًا فـي المستقبل .

وهناك بعض الأمور التى تفيد فى التعرف على حياة عيسـى بـن عمر والوقوف على تفكيره النحوى ومن بينها ما يأتى :

١) حرص عيسى بن عمر على ربط الإعـراب بالدلالـة أو المعنـى ، وتجاوز ذلك إلى القراءات القرآنية ، ومن أمثلة ذلك قراءة النصب لـ "حمالة" فى قوله تعالى : وامرأته حمالة الحطب" [1] ، قال أبو عبيدة : وكان عيسى يقول حمالة الحطب : نصب يقول هو ذم لها أى أن حمالة مفعول به لفعل محذوف والتقدير : أذم حمالة الحطب .

٢) يعد عيسى بن عمر من أوائل نحاة البصرة الذين رحلوا إلـى بغـداد والدليل على ذلك الرواية التى تقول إن الحسن بن شبيب الطـائى (ت ١٨١هـ) . قائد المنصور قد جمع بينه وبين الكسـائى فـى بعـض مجالسه[2] .

---

[1] المسد ٤

[2] الزجاجى : مجالس العلماء ص ١٤٨

٣) اهتم عيسى بن عمر بالإشارة إلى اللغات التى خرجت عن القياس أى الاطراد فى الاستعمال ، والدليل على ذلك ما قاله القدماء من أنه حرص فى وضع كتابه "الجامع" على الأكثر فى الاستعمال ، وسمى ما شذ عن الأكثر " لغات " .

٤) اعتمد سيبويه على عيسى بن عمر فى بعض رواية بعض الأبيات التى احتوت على لهجات القبائل حين إنشاد الشعر ، وبين تخريجها النحوى ، ولم يرفضها ، ويعود السبب فى ذلك إلى أن عيسى سمعها عن بعض العرب والسماع من الأصول وأدلته يجب الاعتماد عليها والأخذ بها .

٥) اهتم عيسى بن عمر بالقراءات القرآنية وهو يعد واحداً من مقرئى البصرة فى زمانه ، وكان يختار فى قراءته على قياس العربية على نحو ما كان يفعل أستاذه ابن محيصن ، ولكن هذا الاختيار لم يلق قبولا من الناس ، لذلك لم يبلغ عيسى فى القراءة مبلغ معاصره أبى عمرو ابن العلاء ولا مبلغ إمام النحاة الكوفة الكسائى الذى انحدرإلى البصرة ، وكان عيسى بن عمر يعلل القراءات فى ضوء أقيسه النحو .

أبو عمرو بن العلاء

وهو العلم المشهور في علم القراءة ، واللغة ، والعربية ، وكان من الشأن بمكان وقد اختلفوا في اسمه اختلافًا كبيرًا حتى لقد أطلقت عليه بعض المراجع واحدًا وعشرين اسما وجعل كنيته هي اسمه .

وقالوا أيضًا إن اسمه زبان وتوفى أبو عمرو سنة ١٥٤هـ في خلافة المنصور ، وقد أخذ أبو عمرو النحو عن نصر بن عاصم الليثي وأخذ عنه يونس بن حبيب البصرى ، والخليل بن أحمد ، وأبو محمد يحيي ابن المبارك اليزيدى ، وأبو عمرو ثقة فيما يرونه ، لأنه كان يهتم بالتدقيق للتوصل إلى الضبط الصحيح لبعض الكلمات ، وكان يعتمد في ذلك على السماع من الأعراب وكان بعض اللغويين يسأل أبا عمرو عما يتصل بالألفاظ واشتقاقها ولم يكن ليجيب إلا عن علم وبينه ، والدليل على ذلك أنه سئل عن اشتقاق الخيل ، فلم يعرف فمر أعرابي محرم فأراد السائل سؤال الأعرابي فقال له أبو عمرو : يعني فأنا ألطف بسؤاله وأعرف ، فسأله ، فقال الأعرابي اشتقاق الاسم من فعل المسمى ، فلم يعرف من حضر ما أراد الأعرابي فسألوا أبا عمرو عن ذلك فقال : " ذهبت إلى الخيلاء التي في الخيل والعجب ألا تراها تمشي العرضنة خيلاء وتكبراً .

وكان أبو عمرو بن العلاء من المتشددين في القياس ، المهتمين بالاطراد في القاعدة ، والدليل على ذلك أن بعض معاصريه قال له :

" أخبرني عما وضعت مما سميته عربية : أيدخل فيها كلام العرب كله فقال : لا فقال له كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر وأسمّي ما خالفني لغات " [1] .

وخاض أبو عمر في التعليل واهتم بالاستقراء على الرغم من أنـــه يعلم أن النصوص التي يستقرئ بها لا تمثل لغة العرب كلها .

وكان أبو عمر يعتمد على السماع حين يتحدث عن ضبط بعــض الكلمات أو يسأله أحد ، وقد ساعده السماع وحفظ الشواهد الشعرية علـــى إطلاق بعض الأحكام المعيارية على اللهجات .

وكان يدرك الفروق اللغوية بين لهجات القبائل العربية وما بينها من تفاوت ، ولأبى عمرو بن العلاء بعض الجهود فى مجال توضـــيح دلالـــة الألفاظ وبيان الفروق الدقيقة بين المعانى وكان يفعــل ذلــك مـــع كبـــار معاصريه سواء أكانوا من اللغويين أم من غيرهم .

يونس بن حبيب

وهو من أكابر النحاة ، أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وسمع من العرب كما سمع من قبله وأخذ عنه سيبويه وحكى عنه في كتابه وأخذ عنه الكسائي وجلس إليه في حلقته أبو زكريا الفراء بعد أن أحاط بعلــم أهــل الكوفة ومن المعروف أن الكسائي والفراء هما مؤسسا مدرسة الكوفة .

وقد حكى بعض العلماء عن الفوائد اللغوية والنحوية التي استطاعوا التوصل إليها خلال حضورهم حلقة يونس ، ومن أولئك الفراء الذى استمع

---

[1] ابن جني : الخصائص : ٢٤٩/١

إلى كلام الأعراب ، وتوصل في ضوئه إلى بعض الملاحظات ذات الصلة بالأداء اللغوى .

وخاض يونس بن حبيب في تفسير الغريب اللفظى وبيان معانى المفردات مع الاستشهاد عليها بأبيات من الشعر ، فقد حكى أبو عمر الجرمى قال : رأيت يونس النحوى مر بحلقة المسجد فقام إليه رجل يسأله عن قوله تعالى : " وأنى لهم التناوش من مكان بعيد "[1] . فقال بيده التناوش التناول وأنشد قول الشاعر :

فهى تنوش الحوض نوشا من علا نوشا به تقطع أجواز الغلا

استطاع يونس بن حبيب الإفادة من معرفته بأصول بعض الكلمات ووزنها الصرفى في أبواب النحو خاصة أبواب الممنوع من الصرف وتوقف يونس أمام بعض أبواب علم الصرف وما يندرج تحتها من القضايا وأصدر عليها بعض الأحكام المعيارية ، ومن أمثلة ذلك أنه لا يجيز النسب إلى ما كان على وزن " فعيلة " ، " فعلية " إلا بحذف الياء ، ولذلك لم يقبل أن يقال في حنيفة : حنيفى وفى سليمة : سليمى ، واهتم يونس بن حبيب بتحليل التراكيب النحوية التى وردت عن العرب مع بيان أصولها المقدرة .

ويونس بن حبيب كان يميل إلى التقدير كغيره من النحاة وأن العامل ينصب وإن كان مقدراً. ومن الجمل التى يبين يونس أهلها قول العرب : عائذ بالله ، والتقدير : أنا عائذ بالله ، أى إن "عائذ" خبر لمبتدأ محذوف

---

[1] سبأ : ٥٢

وأشارت كتب الطبقات والتراجم إلى أن يونس له كتاب في اللغات ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا .

وقد اهتم يونس بالتوجيه الأعرابى لبعض آى الذكر الحكيم ، ومن ذلك قوله تعالى : "وأسروا النجوى الذين ظلموا"[١] الذى أثار جدلاً بين علماء النحو خاصة حين حملته قلة منهم على لهجة : "أكلونى البراغيث" أى تلك اللهجة التى تضع في الفعل علامة تدل على أن الفاعل مثنى أو جمع فيقال ذهبا الرجلان – ذهبوا الرجال – ذهبن النسوة ، وأشاروا إلى أن الواو في " أسروا " علامة على أن الفاعل جمع ، ولكن يونس أعرب " الذين بدلا من واو الجماعة ، ومثل لذلك بجوار يجرى بين شخصين على النحو التالى :

الأول : انطلقوا .

الثانى : من ؟

الأول : بنوفلان .

التقدير : انطلقوا بنوفلان

لذلك بنوا يدل من واو الجماعة في " انطلقوا " .

واجتهد يونس في توجيه إعراب بعض الآيات الكريمة ولكن بعض النحاة لم يأخذ به ومن ذلك قوله تعالى : " ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيًا " [٢] إذ يرى أن الفعل " ننزع " ملغى ، " وأى " مرفوع بالابتداء ، وأشد خبره كما يقال : قد علمت أيهم عندك ؟ ولكن

---

[١] الأنبياء : ٣

[٢] مريم : ٦٩

سيبويه لم يأخذ برأي يونس ، وحكم عليه بأنه غلط لأنه لا يجوز أن يلغى إلا أفعال الشك واليقين نحو ظننت وعلمت ، وقد اعتمد سيبويه على يونس بن حبيب في الأخذ ببعض القراءات القرآنية قال : "وسمعنا بعض العرب يقول : " الحمد لله رب العالمين " فسألت عنها يونس بن حبيب فزعم أنهـا عربية [1] .

و " رب " منصوب على المدح فهو مفعول به لفعل محذوف تقديره : أمدح رب العالمين وهى قراءة زيد بن على .

---

[1] الكتاب : ٢/٤٠٠

الخليل بن أحمد الفراهيدى

هو الخليل بن أحمد الفراهيدى وقيل الفرهودى وقد ذكر المرزبانى أنه لم يجد في نسبه زيادة على اسم أبيه ، غير أن القفطى[1] أضاف بعـد اسم أبيه " عبد الرحمن " فقال :

" الخليل بن أحمد بن عبد الرحمن " وذكر ابن خلكان وياقوت شيئًا آخر فقالا هو الخليل بن احمد بن عمر بن تميم " [2] .

أما بالنسبة فينتهى إلى قبيلة عربية من اليمن ، هى الأزد ، ويختلف الرواة في تحديد الفرع الذى ينتمى إليه الخليل ، فذهب بعضـهم إلـى أن الفراهيد بن مالك بن فهم ، ورأى آخرون أنه فرهود بن شبابة بن مالك بن فهم .

وليس من المبالغة إن نقول أن الخليل بن أحمـد الفراهيـدى هـو صاحب الفضل الأول في إقرار علم النحو وتثبيت أركانه وترسيخ أصوله واستنباط كثير من أحكامه وأقيسته وعلله .

ولم يكن الخليل يحوى لمولد ولكنه انحدر إليها من قريـة عمانيـة ويبدو أنه كان في مرحلة من العمر تهيئ له أن يكون ذا عقيـدة وانتمـاء دينى فقد نقلوا عنه أنه قال : " قدمت من عمـان ورأيـي رأى الصـفرية فجلست إلى أيوب بن أبى تميمة السختيانى فسمعته يقول ...... ولقد اتفق مؤرخون على أنه ولد سنة ١٠٠هـ ولكنهم اختلفوا في تحديد سنة وفاته ،

---

[1] القفطى : إنباه الرواة على أنباء النحاة ٣٤١/١

[2] ابن خلكان : وفيات الأعيان ١٥/٢

– ياقوت الحموى : معجم الأدباء ٧٢/١١

فذكروا أنه توفي سنة سبعين ومئة ، وهذا أصح الأقوال . وقيل توفي سنة سبع وسبعين ومئة ، وقيل سنة خمس وسبعين ومئة وقيل سنة ستين ومئة، وقيل سنة ثلاثين ومئة وهذا أضعف الأقوال [١] .

وذكروا في سبب موته أنه قال أريد أن أقرب نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البقال فلا يمكنه ظلمها ودخل المسجد وهو عمل فكره في ذلك قصد منه سيارة وهو غافل عنها بفكره ، فانقلب على ظهره فكانت سبب موته ، وقيل بل كان يقطع بحراً من العروض وإذا صح أحدهما كان الخليل أول ثلاثة قضى عليهم العلم وهم الخليل والجاحظ وأبو جعفر النحاس .

وعلى الرغم من زهد الخليل في المال والسلطان نراه يترك البصرة إلى بغداد حينا ، فيلتقي بالخليفة المهدي والى خراسان طوراً فينقطع إلى الليث بن رافع ويقصد الأهواز إلى سليمان بن علي.

أما زيارته لبغداد فقد حدثنا عنها التاريخ حديثًا غامضا إذ ساق على لسان الخليل قوله : "بعث إلى المهدي فأتيته وهو جالس في الماء على سرير له إلى صدره فسلمت عليه فقال لي إني اشتهيت الحديث الساعة فعدتني ...

وكان الخليل زاهدًا ورعًا ، عفًا ، رضي من زمانه بالقلة والضيق وصد عن السلطان والمال حتى قيل عنه : أكلت الدنيا كلها بعلمه وكتبه وهو في خص لا يشعر به أحد [١] .

---

[١] القفطي : انباه الرواة على أنباه النحاة ٣٤١/١

الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ص ٥١

وتتبدى أخلاقة السمحة في بعض أقواله المأثورة منها قوله : أربع تعرف بهن الآخرة : الصفح قبل الاستقامة ، وتقديم حسن الظن قبل التهمة ، والبذل قبل المسألة ، ومخرج العذر قبل العتب ، وكان الخليل بن أحمد ذكيًا جداً حتى نعت بأنه أذكى العرب بعد الصحابة [٢] .

ولقد اتيح للخليل بن أحمد أن يتقلب في بيئة علمية غنية إذ عاصر الفقيه الكبير أبا حنيفة وهو رأس مدرسة الرأى والقياس في تاريخ الفقه الإسلامى ، وعاصر الخليل من النحاة الحضرمي وعيسى وأبا عمرو ، وعاصر من قراء القرآن وشيوخه عاصم بن أبى النجود الكوفى وعبد الله ابن كثير المكى ، ولقى أعراب البادية الفصحاء في المربد وفى مساكنهم ببوادى الحجاز ونجد و تهامة .

وتتفق المصادر على أن الخليل بن أحمد الفراهيدى أخذ عن أبى عمرو بن العلاء وهناك أدلة على ذلك أولها ما جاء في بعض الكتب التاريخية وثانيها أن سيبوية أثبت هذا صراحة في كتابه والدليل الثالث أن أبا عمرو كان شيخ البصرة وعالمها يوم أن كان الخليل في سن الطلب فمن غير المعقول أن لا تدفعه الرغبة إلى الحضور في حلقاته والأخذ عنه، صحيح أن الخليل فاق أبا عمرو في علم النحو ولكن ليس من الضرورى أن يكون كل ما أخذه عنه نحوًا فربما كان يحضر حلقته للرواية واللغة والقراءة ومعانى القرآن إلى جانب النحو .

---

[٢] نزهة الألباب : ٤٨

[٣] القفطي : أنباه الرواة على أنباء النحاة ٣٤٥/١

ولم يكن الخليل مجرد تلميذ يكتفي بما يسمعه في حلقات الدرس بل أوتى من نفاذ الذكاء وعمق النظرة ما ساعده على الاستنباط واستخراج الأقيسة ولذلك كان ينهل من منبع العربية الأصيل وهو البادية ، ويجد فيه المصدر الأساسي لعلومه ، فقد سأله الكسائي : من أين أخذت علمك هذا فقال : من بوادى الحجاز ونجد وتهامة .

وقد ذكر المؤرخون بعض الأعراب الذين أتصل بهم وأخذ عنهم وهم أبو مهدية ، وأبو طفيلة ، وأبو البيداء ، وأبو خيره ، وأبو مالك ، وأبو الدقيش ، كما نقلت عنه كتب اللغة روايات كثيرة عن الأعراب ، وحوى كتاب " العين " لغات اليمن ، وتميم ، وطئ ، وعقيل ، وهذيل ، ولعل قيمة الخليل العلمية تتجلى بأوضح صورها فيما اخترعه في حقول العلوم اللغوية والأدبية ، وربما كان العروض أبرز هذه الاختراعات فقد استنبط من العروض وعلله ما لم يستخرجه أحد ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم .

والمخترع الثانى جمعه ألفاظ اللغة كلها في معجم واحد بطريقة رياضية صوتية ، وكتابه "العين" أول معجم لغوى في تاريخ اللغة العربية ، كما أن دراسته للأصوات جديدة إذ حدد مخارج الحروف وصفاتها من الجهر والهمس والرخاوة .

كما استنبط من علم النحو ما لم يسبقه إليه أحد ولا سيما في العلل والأقيسة .

وهناك بعض المصطلحات اللغوية التى اخترعها الخليل بن أحمد ففى العروض استخدم السبب والوتد والعروض والضرب والعلل

والزحافات والقبض والصدر والعجز والطويل والمنسرح والبسيط والوافر والكامل والقافية والتأسيس والردف والروى ، ولعله هو الذى اصطلح في علم اللغة على الجهر والهمس والمخرج ، وربما كان أول من أطلق على القرينة اللفظية التى يصاحبها حركة إعرابية خاصة مصطلح "العامل" ونقلوا عنه قوله " أنا أول من سمى الأوعية ظروفًا " .

وكما كان تنوع علوم الخليل سببًا في كثرة شيوخه كان أيضا سببا في كثرة تلامذته فهم بين طالب نحو وطالب لغة وطالب قراءة ، وكانت حلقته من أضخم حلقات العلم في مسجد البصرة الكبير ولا شك أن أعظم تلامذته وأكثرهم شهرة سيبوية فهو صاحب الكتاب المشهور الذى امتلأ بآراء الخليل فلا تمر بباب من أبوابه النحوية والصرفية إلا وللخليل فيه رأى أو أكثر من رأى .

ومن تلامذته المشهورين : الأصمعى والنضر بن شميل ومؤرج السدوسى وعلى بن نصر الجهضمى ، وعيينه بن عبد الرحمن المهلبى ، والوليد بن محمد وبكار بن عبد الله ، وألم بحلقته الكسائى ويحيى بن المبارك التحريدى ويبدو أن التاريخ لم يستطع أن يحط بكل المؤلفات التى تركها نحاة هذا العصر ولغويوه لأن كثيرًا منها ضاعَ لم ينتشر في الناس ببدو أيضًا أن كثيرًا منها اختلط على المؤرخين فتداخل بعضها في بعض ولم يستطيعوا أن يفرقوا بينهم فرقًا صحيحًا .

والذى قاله المؤرخون عن كتب الخليل لا يخلو من اضطراب أما ما ذكروا له منها فهو :

كتاب العوامل ، كتاب الشواهد ، كتاب الجمل ، كتاب العين ، كتاب معانى الحروف ، النغم والنقط ، والشكل ، والعروض ، وكتاب في التوحيد أو في علم الكلام .

وليس من المبالغة أن يذهب باحث إلى أن الخليل أعظم نحوى حملته أرض العراق ، بل أعظم نحوى على مدى العصور ، فلقد فتن به القدماء وضربوا به الأمثال ، وذكروا أن الإجماع منعقد على أنه لم يكن أحد أعلم بالنحو منه .

والحق أن سيبوية اتكأ في معظم الأبواب على علم الخليل بل كان فى كثير من الأحيان يكتفى بقوله : وسألته ، أو قال ، أو قلت له ، من غير أن يصرح باسمه .

وتتضح قيمة الخليل بن أحمد الفراهيدى فى تاريخ النحو العربى فى أنه أكمل الأسس التى وضعها النحاة منذ أبى الأسود الدؤلى حتى أيامه ، فهم الذين قاموا بعملية الاستقراء ووضع الأصول واستنباط النظم اللغوية ، حتى إذا جاءه نظر فيما جمعوه حاول أن يكمل استقراءهم ويعمق أصولهم ويفسر النظم تفسيرًا يقوم على ربط الظواهر بعضها ببعض والنظر إلى اللغة على أنها صرح محكم البنيان منطقى التركيب .

ولعل الخليل بن أحمد أول من شقق القول فى تحليل التركيب الذى تقع فيه "لاسيما" وتأول اختلاف المتكلمين فى إعراب الاسم الذى يباشرها قال سيبوية : "وسألت الخليل بن أحمد رحمه الله عن قول العرب : ولا سيما زيد ، فزعم أنه مثل قولك : ولا مثل زيد و " ما " لغو وقال : ولا سيما زيد كقولهم دع ما زيد وكقوله مثلاً : " ما بعوضة فـ " فى هذا

الموضع بمنزلة "مثل " ومن ثم عملت فيه" لا " كما تعمل رب في " مثل " [1].

وحديث الخليل عن العامل لا يعدو أن يكون تفسيرا للظاهرة الإعرابية فى لغة العرب ، وتحليلاً للعلاقات اللفظية والمعنوية فى التركيب، ونراه أحيانًا يستعين بالمعنى الوظيفى لتفسير العمل كما فعل فى جزم جواب الطلب فهو يرى أن التعبير بالأمر والتمنى والسؤال وجميع ألوان الطلب تحمل معنى " أن " .

ومن رأيه فى العمل النحوي أن الكلمات المبنية بنيت لإبهامها وضعف تصرفها فى التركيب ، غير أن بعضها أخذ سمت الكلمات المعربة فتصرف وتحول إلى معرب فى بعض العبارات فأثرت فيه العوامل ، وإذا كان القول بالعامل تفسيرًا للظواهر الإعرابية فإن نظرة الخليل أحياناً إلى علاقات الكلم بعضها ببعض تبدو دقيقة عميقة ، وفى تفسيره للظاهرة الإعرابية كثيرًا ما يلجأ إلى القياس فهو مثلاً يقرن " إنما " إلى " أرى " فى الإهمال يقول : " إنما لا تعمل فيما بعدها كما أن أرى إذا كانت لغوا لم تعمل فجعلوا هذه نظيرها من الفعل كما كان نظير " إن " من الفعل ما يعمل [2] .

وللخليل موقف من الاحتجاج بالقراءات القرآنية يتسم بالأناة والموضوعية فهو لم يطعن فيها ، بل كان يلتمس لها وجهًا ويحتج بها فى بعض الأحيان . وهو الذى أثر فى سيبويه وأوحى إليه بتلك الروح التى

---

[1] سيبوية : الكتاب ٢/٢٨٦

[2] سيبوية : الكتاب ٢/١٣٨

تطالعنا ، فى كتابه ففى غير موضع من الكتاب نجد سيبويه يسأل شيخه الخليل عن بعض أساليب القرآن الكريم فيجيبه معللاً ما فيها ، موجها له ، من ذلك أنه سأله عن كسر همزة " إن " فى قراءة من قرأ . وما يشعركم إنها إذا جاءت لا يؤمنون . فقال له : إنما قال : وما يشعركم ، ثم ابتدأ فأوجب فقال : إنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ولو قال : وما يشعركم أنها ، كان عذرا لهم " .

ثم عرض سيبويه لقراءة أهل المدينة بفتح الهمزة ، فعللها الخليل بقوله : "هى بمنزلة قول العرب : أنت السوق أنك تشترى لنا شيئًا . أى لعلك فكأنه قال : لعلها إذا جاءت لا يؤمنون " [1] .

إن الخليل درس لغة لعرب ، ولم يدع شعرا ولا كلامًا منطوقا ولا قراءة قرآنية إلا كان يبحث فيها ويستنبط منها مع ملاحظته مستويات اللغة .

ولكن ما الذى كان يفعله الخليل إذا تعارض السماع والقياس ؟ إن له فى هذا رأيا ذع فى خالفية ، وبنى عليه بعضهم أبوابًا كاملة فى كتبهم كما فعل أبو على فى العسكريات ، وابن جنى فى الخصائص وفحوى هذا المذهب أن السماع الصحيح عن العرب لا يعترض عليه بالقياس وهذا واضح فى كلام سيبويه : " قال الخليل : كل شئ من ذلك عدلته العرب تركته على ما عدلته عليه وما جاء تامًا لم يحدث العرب فيه شيئًا فهم على

---

[1] سيبوية : الكتاب ١٢٣/٣

القياس ، فمن المعدول الذى هو على غير القياس قولهم فى " هذيل " هذلى ، وفى فقيم : فقمى .. [1] .

وفى عصر الخليل اشتدت الأصرة بين النحو والفقه ، وبينه وبين علم الكلام ،ولاسيما في مدينة البصرة ، أو فى العراق عامة ، فلقد امتد الجدل الفكرى والدينى حتى عم المثقفين بالإضافة إلى أن تأثير الفقه فى النحو ظهر منذ المراحل الأولى إذ كان النحاة يرون فيه اصل العلوم العصرية ولذلك كانوا يهتمون به وينهلون منه ويشاركون فيه .

وعرف القدماء والمعاصرون أن الخليل أعظم النحاة الذين أخذوا بمنهج الرأى وفسروا ظواهر اللغة وبناها الداخلية والخارجية تفسيرًا ذهنيًا يفيد من نظم اللغة .

وربما كان الخليل بن أحمد أول من قال بتركيب الأدوات وبحث فى أصول بعضها ، فمثلاً " هلم " يرى الخليل أنها مركبة من " لم " أدخلت عليها " الهاء " كما أدخلت على " ذا " .

وقد فصل ابن جنى الحديث فى هذا فقال : " ومنها هلم وهواسم أنت ، وتعال ، قال الخليل هى مركبة وأصلها عنده " ها " للتنبيه ثم قال لم " أى لم بنا ثم كثر استعمالها فحذفت الألف تخفيفًا " [2] .

وذهب الخليل إلى أن " لن – هلا " مركبة من " لا " و " أن " ولكنهم حذفوا لكثرته فى كلامهم ، كما قال ويلمه : يريدون : ولا لأمه

[1] سيبويه : الكتاب ٣٣٥/٣

[2] الخصائص : ٣٥/٣ ، ٢٣٠/٣

وكما قالوا : يومئذ بمنزلة حرف واحد ، كما جعلوا " هلا " بمنزلة حرف واحد فإنما هي : هل ، لا " [1] .

ومن أثر الخليل فيمن جاء بعده من النحاة أنه :

١) كاشف قناع القياس ومصححه في تاريخ النحو ، وما سيبويه وابن جني والفارسي إلا من المتخرجين بجامعة الخليل ، وربما جاز لنا أن نقول : إن الخليل كون مذهبًا أو مدرسة تبدأ به ويتولى فيها سيبويه والمبرد وابن السراج والزجاج والفارسي وابن الشجري وأبو البركات الأنباري وابن يعيش ......

وإن كانت تختلف خطوط هؤلاء في مدى إفادتهم من الخليل ، والاقتداء به .

٢) الخليل مثبت أركان النحو وصاحب معظم الآراء النحوية التي صارت مشاعًا بين المتأخرين .

---

[1] سيبويه : الكتاب ٣/٥

أبو الأسود الدؤلى

تكاد المصادر تجمع على أن اسمه الأول " ظـالم " إلا أن بعـض الروايات النادرة تذهب إلى أنه " عثمان " ولكنها تختلف فى ترتيب أجداده، فالجاحظ يذكرهم على الشكل التالى : ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان، ويذكرهم غيره على هذا لشكل : ظالم بن سراق ، أو عمرو بن شيبان بن ظالم ، ولا شك أن ما ذهب إليه الجاحظ وهم ،

وتتعدد لأقوال فى نسبه ، فالأكثرون على أنه " الـدؤلى " ويـرى آخرون أنه الديلى أو " الدئلى " ، ويرجع هذا الاختلاف إلى تشابه اللفظ ولم تحدد المراجع سنة ولادته ، ولكنها تجمع على أنها قبل الإسلام وعلى أنـه مات سنة تسع وستين للهجرة ، عن عمر بلغ الخامسة والثمانين ، وبحسب هذا تكون ولادته قبل الإسلام بثلاث سنوات ولقد جمع أبو الأسود روايـة الحديث النبوى إلى قراءة القرآن ، فروى عن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس ، وعن أبى ذر ، وغيرهم .

كما عرف بالإحاطة بلغة العرب وأشعارها ، منذ أن كان يختلـف إلى على بن أبى طالب ، وكان الناس يرجعون إليه إذا اختلفوا فى أشـعر الناس ، أو إذا أرادوا أن يعرفوا شيئًا من شئون اللغة .

وفى رواية أن رجلا قام لابن عباس فسأله عن أشعر الشعراء فقال ابن عباس : أخبره يا أبا الأسود الدؤلى " فقال : الذى يقول فإنك كالليـل الذى هو مدركى .. وإن خلت أن المنتأى عنك واسع .

كان أبو الاسود مرجع الناس فى تفسير القرآن الكريم ، ويبدو أنـه كان يعرف شيئًا من الكلمات السريانية ، فقد ذكروا أنه فسر قوله تعـالى :

فصرهن إليك " بأنه يعني : قطعهن وقال : هي كذلك في السريانية ، وكان الناس يرونه شيخ العلم وفقيه الناس وصاحب عليّ وخليفة عبد الله بن العباس .

وهذه الشهرة العلمية تفسر اتفاق الروايات التي أجمعت على أنه هو الذي ندب إلى نقط المصحف فعلى الرغم من تعدد أسماء الأمراء واختلاف الأخبار في أنه عمر أو علي أو معاوية أو زياد نجدها تتفق في أن المندوب هو أبو الأسود الدؤلي لا غيره .

ومن المؤكد أن وضع النحو ونموه في علم أبي الأسود مر بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : كانت أيام اختلافه إلى الأمام علي كرم الله وجهه وما أفاده منه في فهم لغة القرآن الكريم ، والتأمل في تراكيبها العربية ، واستنباط بعض الضوابط البسيطة .

المرحلة الثانية : وتتمثل بندب الأمراء له إلى نقط المصحف ، فهو هنا لا يقرأه قراءة الملقن بل قراءة اليقظ الحذر الذي يفكر في العبارات ويتأمل الظواهر ، ويراقب تغاير المدلول لتغاير التركيب ، وقد هيأت له هذه المرحلة أن يسلك في الاستنباط مسلك المستقرئ مفيدًا مما طبع عليه من فصاحة فطرية ، ومما تهيأ له من أسباب الثقافة والمعرفة .

المرحلة الثالثة : وهي المرحلة التعليمية من حياته ، وفيها اختلف إليه الناس من المقرئين ، يأخذون عنه ما أصله ، فازدادت هذه الأصول

رسوخًا عنده ، وبدأت تتفرع وتتشعب من جـــراء التعلـــيم ، ومـــا يجرى هناك من حوار بينه وبين تلامذته الواعين .

وترجع قيمة أبى الأسود الدؤلى فى تاريخ النحو إلى أنه أول مـــن اتجه بالدراسة اللغوية إلى الاستقراء والاستنباط وكانت قبله تقـــوم علـــى محاكاة الأعراب والاختلاط بهم وحفظ الشعر والأنساب ، فتحول بها إلى وضع الضوابط الدقيقة ، ورصد الظواهر المتبدلة فى تركيب العربية .

وأبو الأسود الدؤلى هو الذى قام بنقط المصحف حين قال لزياد "قد أجيبك إلى ما سألت ، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن ، فابعث إلى بثلاثين رجلا ، فأحضرهم زياد فاختار منهم أبو الأسود عشـــرة ، ثـــم لـــم يـــزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيسي فقال : خـــذ المصـــحف ، وصبغًا يخالف لون المداد فإذا فتحت شفتى فانقط واحدة فوق الحرف ، وإذا ضممهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف ، وإذا كسرتها فاجعل النقطة فى أسفله ، فإن اتبعت شيئًا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين[1] .

ولا شك أن هذا يدل على وعيه اللغوى وأن لديه إبداع يدل بوضوح على إدراك أبى الأسود لتصريف الكلمات ووظائفها فى التركيب وما ينجم عن ذلك من اختلاف الحركات .

---

[1] ايضاح الوقف والابتداء ص ٤٠-٤١

سيبويه

اسمه عمرو بن عثمان بن قنبر بفتح القاف والباء وسكون ما بينهما وهو فارسي الأصل والنشأة ، الأولى حيث ولد بقرية البيضاء من قرى شيراز ، وقد أتم مرحلته التعليمية الأولى فى شيراز أو غيرها من بلاد فارس ، وفيها كان تطبعه الاجتماعى واللغوى وبعد ذلك رحلت أسرته إلى البصرة وكان ذلك بدوافع غير معروفة وبتاريخ غير محدد [1] .

وكان سيبوية طموحا للتزود بالثقافة العربية فلما قدم البصرة التحق بحلقات الفقهاء والمحدثين ، فلزم حلقة حماد بن سلمة بن دينار المحدث المشهور فى ذلك الوقت .

ويرى البعض أن سيبويه قد رحل إلى البوادى العربية وعايش العرب فى بيئاتهم المختلفة فشافههم ، وسمع منهم ونقل عنهم ، وقد ذهب هذا المذهب كثير من الباحثين والدارسين وأكدوا لأنفسهم ولغيرهم أن سيبويه قد رحل إلى الأعراب فى بواديهم فسمع منهم ونقل عنهم نقلا مباشراً .

والواضح من الكتاب لسيبوية أنه نقل عن سابقيه كل ما عنهم وخاصة الخليل بن احمد الفراهيدى . وقد ذكر كثير من الباحثين والدارسين أنه صاحب منهم معين اعتمد فيه على السماع والقياس .

---

[1] أبو الطيب اللغوى : مراتب النحويين ص ٦٥

- ابن النديم : الفهرست ٨٢ ، السيرافى : أخبار النحويين البصريين ص ٤٨
- السيوطى : بغية الوعاة ٣٦٦
- الزبيدى : تاج العروس ٣٠٥/١
- القفطى : انباه الرواه على انباء النحاة ٣٤٦/٢

وعندما هبط سيبوية البصرة كانت الدراسة الإسلامية نوعين : دينية وأدبية ، وتشمل الدينية القراءات والتفسير والحديث والفقه ، وتشمل الأدبية اللغة والنحو والصرف ورواية الشعر وغيرها .

وقد طلب سيبويه أولا علوم الدين ثم انصرف إلـى علـوم لأدب وغلب عليه النحو حتى صار فيه الإمام الأعظم .

فسيبوية تعلق من كل علم بسبب ، وضرب فيه بسهم إلـى جانـب إمامته فى العربية. وتدل بعض أنبائه على أنه كان يحب الكتب حبًا جمـا ويقبل على العلم إقبالا شديدا حتى لا يكاد يفضله لديه شئ أو يشغله عنـه شئ ويروون فى ذلك أنه كانت لديه جارية وكانت له محبـة ، فلمـا رأت إعراضه عنها وانصرافه إلى كتابه بجمع جزازته ويؤلف أبوابـه الأولـى ترصدت له حتى خرج لبعض شأنه فأخذت جذوة نار وطرحتها فى الكتب حتى احترقت ، فلما رجع سيبويه ورأى كتبه وقد صارت هباء غشى عليه ثم أفاق فطلقها .

وكان للخليل تلاميذ أبرزهم اثنان هم : الأخفش وقطرب ، وكـان لسيبوية زملاء أخذوا العلم معه عن الخليل وبرز منهم أربعة وهم : سيبويه وقد غلب عليه النحو ، ومؤرخ السدوسي وقد غلب عليه الشـعر واللغـة، وعلى بن نصر الجهضمى وقد غلب عليه الحديث ، والنضربن شميل وقد غلبت عليه اللغة ، كرعوا معاً فى معين الخليل ، وكان لكل مع ذلك لـون خاص ومزية غير مزايا الآخرين .

مصادر المادة النحوية

١ – القرآن الكريم

أجمع اللغويون على أن القرآن الكريم ذروة البلاغة والفصاحة العربية ، وعلى أنه الينبوع الأعظم والدليل الأقوم فى استنباط قواعد اللغة والنحو وتقرير مسائلهما ، وخير ممثل للغة العربية المشتركة ، ولهذا فقد أجمعوا على صحة الاستشهاد بقراءاتة المتباينة متواترها ، وآحادها ،وشاذها ؛ لأن هذه القراءات إنما تعتمد على المشافهة بالرواية ، وعلى رسوم أمهات المصاحف العثمانية ، وهى إن شذت و تفردت أوثق بكثير من المرويات الأخرى من غير القرآن .

ولقد تباينت مواقف اللغويين من القرآن وقراءاته ، ففى حين لم يعهد أن أحداً منهم قد تعرض لشئ مما أثبت فى المصحف بالنقد والتخطئة فإن نظرتهم إلى القراءة قد حددتها الغاية من الاستشهاد بها .

ولقد اضطرب موقف النحاة من الاستشهاد بالقرآن لكريم بين النظرية والممارسة العملية ففى حين أكد هؤلاء النحاة إن القرآن الكريم يحتج بكل قراءاته حتى الشاذة والضعيفة فإن موقفهم فى الممارسة العملية للشواهد بما دونوه فى كتب النحو يشير بوضوح إلى أن هؤلاء العلماء قد تعندوا صرف أنفسهم عن استقراء النص القرآنى لاستنباط القواعد منه .

٢-الحديث النبوى الشريف

يجمع العلماء على أن كلام رسول الله (ص) يأتى فى المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم بلاغة وفصاحة وجمال أسلوب ، وبراعة تركيب ، فلا يسمو إليه أو يدانيه كلام عربى مهما علت بلاغته وارتفعت فصاحته ومع ذلك فقد أغمض النحاة عيونهم عن الاستشهاد به، وأحجموا عن الأخذ به فى استنباط الأحكام ، ورصد الأنظار النحوية وهو موقف مشابه لموقفهم من الاستشهاد بالقراءات إذ لا نجد فى كتب النحاة الذين قعدوا النحو وأصلوا أصوله وفننوا مصطلحاته وأبوابه شيئًا يشير إلى موقف النحاة الأوائل من الاحتجاج بالحديث .

والقارئ لكتاب سيبويه لا يجد فيه إلا حديثًا واحدًا أورده على سبيل توكيد غيره من النصوص لا للاحتجاج به .

وسار على هذا المبدأ من جاء بعده من علماء النحو حتى كان ابن خروف وابن مالك فى القرنين السادس والسابع الهجريين .

كلام العرب

ويراد به ما سمع من أشعار العرب وأمثالهم ، وما جرى فى مخاطبتهم ، وهو المصدر الشامل للاستشهاد ، وأهم العناصر التى اعتمد عليها علماء اللغة بصفة رئيسية فى بناء القواعد والاحتجاج لها . على أن كلام العرب لم يستشهد به على علاته بل اعتمد على فصحاء العرب من قبائل عربية معينة معزولة فى قلب الجزيرة العربية ، ومع هذا فقد تحرى العلماء فى العرب الصحة اللغوية والفصاحة .

وعلى الرغم من التحديد المكانى للغة إلا أنهم أيضًا رسموا منهجًا فى التلقى والأخذ ممن وسموا بالبداوة فكان تدوينهم للغة واستنباط القواعد منها مبنيًا على الأكثر الشائع والمشهور فى لغات هذه القبائل وهو مسلك سلكه أبو عمرو بن العلاء .

وقد احتج النحويون بكلام العرب الموثوق بفصاحتهم بقسميه : الشعر والنثر فى حدود الزمان والمكان اللذين تواضعوا عليهما .

أما الشعر : فقد أولاه اللغويون عناية فائقة حتى اصطبغ النحو صبغة شعرية وعدوه العنصر الأساسى لهم ، وطغى أمره على باقى المادة اللغوية لدرجة أن كلمة الشاهد قد أصبحت فيما بعد لا تغنى غير الشعر .

وكانت البداوة شرطًا من شروط الشعر الذى يحتج به وكان من نتيجة هذا أن حكموا على الشعراء الإسلاميين بضعف شعرهم .

أما النثر فتمثل شواهده نوعين من المادة اللغوية :

الأول : ما وقع منهم على شكل مثل أو كلمة أو خطبة أو وصية أو نادرة فهذه يحتج بها كاحتجاجهم بالشعر وشروطه .

الثانى : ما روى عن الأعراب ممن يستشهد بكلامهم فى حديثهم الدارج دون أن يشتهر شهرة النوع الأول ، ولقد حددوا لهذا النوع حدودًا زمانية هى نهاية لقرن الثاني الهجري ، وأخرى مكانية حيث ارتبطت بفكرة البداوة والحضارة .

بدء النشاط النحوي والتأليف

اتفق القدماء على أن أبا الأسود وضع أول نقط يحرر أواخر الكلمات فى القرآن الكريم فقد قال لزياد ابن ابيه : " وقد أجبتك إلى ما سألت ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن الكريم فابعث إلى ثلاثين رجلاً ، فأحضرهم زياد ، فاختار منهم أبو الأسود عشرة ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلا من عبيد القيس فقال : خذ المصحف وصبغًا يخالف لون المداد فإذا فتحت شفتى فانقط واحدة فوق الحرف ، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف ، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة فى أسفله فإن اتبعت شيئا من هذه الحركات " غنة " فانقط نقطتين .

وابتدأ أبو الأسود المصحف حتى أتى على آخره بينما كان الكاتب يضع النقط بصبغ يخالف لون المداد الذى كتبت به الآيات الكريمة وعرف هذا الضبع فى تاريخ الفكر النحوى باسم " اسم العربية " أى أن أبا الأسود رسم إعراب القرآن الكريم عن طريق نقط أواخر الكلمات فيه .

ونتج عن قول أبى الأسود لكاتبه : فتحت وضممت وكسرت مصطلحات الفتحة والضمة والكسرة فيما بعد ، وقد اختار أبو الأسود أن تكون الفتحة من فوق الحرف لأن فيها استعلاء ، وأن تكون الكسرة من تحته لأن فيها تسفلاً ولم يبق للضمة إلا موضع واحد وهو أن تكون بين يدى الحرف أو فى وسطه أو أمامه وقد سمى التنوين غنة لأن التنوين كما نعلم نون ساكنة تلحق آخر الاسم نطقًا لا كتابة وهناك جزء من نطق النون الساكنة يخرج من الأنف ، وقد اهتم أبو الأسود بقراءة القرآن الكريم ورواية الحديث النبوى وكان على علم واسع بلغات العرب وهناك بعض

الروايات التي تدل على خوضه في الغريب اللفظي واستعماله في الكـــلام، وكان يحيط بأشعار العرب ويكثر من حفظه ، ويذكر أن الناس اختصـــموا ليلة حتى ارتفعت أصواتهم فيمن يستحق أن يكون أشعر الناس فقال علـــي كرم الله وجهه – لأبي الأسود : قل يا أبا الأسود

فقال أبو الأسود وكان يتعصب لأبي دؤاد الإيادي أشعرهم الذي يقول :–

ولقـــد اغتـــدى يـــدافع ركنـــي احـــوذى ذو ميعـــة إضـــريح

وهناك رواية أخرى تقول إن رجلاً قام لابن عباس فسأله عن أشعر الشعراء فقال ابن عباس :– أخبره يا أبا الأسود فقال الذي يقول

فإنك كالليـــل الـــذي هـــو مـــدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وحين تحدث القدماء عن جهد أبي الأسود في مجال النحو قالوا عنه : إنه أول من أسس العربية ونهج سبلها ووضـــع قياســـها وذلـــك حـــين اضطرب كلام العرب وصار سراة الناس ووجههم يلحنون فوضـــع بـــاب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف النصب والرفع والجر والجزم .

وقد بدأ التأليف فى النحو منذ الطبقة الثانية البصرية ثم أخذ يتدرج بعد ذلك فى أشكال متعددة وأساليب مختلفة .

وليس من السهل أن نعرف تدرج التأليف النحوي على وجه دقيق وذلك لضياع كثير من كتبه ولا سيما المؤلفات الأولى فى هذا العلم مثل كتابى الإكمال والجامع اللذين وضعهما عيسى بن عمر .

وأول كتاب شامل فى النحو هو كتاب سيبويه المتوفى سنة١٨٣ هـ ويجئ بعده من حيث الشمول كتاب " المفصل " الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ ، وبين عصرى هذين المؤلفين أكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن ظهرت فيها بعض الكتب النحوية :

ومن هذه الكتب مستقلة فى بعض مسائل النحو، مثل رسالة الكسائى فى نحو العامة ، والمذكر والمؤنث للفراء ، والمقصور والممدود لابن ولاد المصرى المتوفى سنة ٣٣٢هـ ، وإعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم لابن خالويه ، وملحمة الأعراب للحريرى سنة ٥١٦هـ ، وإصلاح المنطق لابن السكيت ، وسر النحو لأبى العباس ثعلب الكوفى .

ومنها كتب جاءت البحوث النحوي والصرفية فى ثناياها أو فى بعض فصولها مثل كتابى الكامل والمقتضب للمبرد ، والأمالى للزجاجي المتوفى سنة ٣٢٩هـ ، وكتابى الخصائص وسر صناعة الإعراب لابن جنى ، وكتاب الأصول لابن السراج المتوفى سنة ٢٦١هـ ، وكتابى الإيضاح والتكملة لأبى على الفارسى ، وبعض هذه الكتب لا يزال مخطوطًا ويجئ بعد كتاب المفصل للزمخشرى كتب ابن الحاجب وهي :

الكافية وشرحها ، والوافية وشرحها فى علم النحو ، والشافية وشرحها فى الصرف .

ثم تجئ ألفية ابن معط وألفية ابن مالك ، وهما من كتب النحو التى يعنى بدرسها وتحصيلها فى وقتنا الحاضر .

ثم تجئ كتب أخرى تجمع شمل القواعد النحوية فى أساليب مختلفة مثل كتب ابن هشام ، وكتب السيوطى ، ككتابه جمع الجوامع فى النحو مع شرحه المسمى الهوامع ، وكتاب الاقتراح فى أصول النحو للسيوطى .

نمـــــاذج
من التأليف النحوى

نماذج من التأليف النحوى

كتاب سيبوية

وقد تضمن كتاب سيبوية أبوابا متعددة عالجـــت جميـــع المســـائل النحوية :

الجزء الأول من الكتاب :

ففى الجزء الأول تعرض المؤلف للموضوعات الآتية على الترتيب :

١- الكلم أقسامه
٢- اللازم والمتعدى
٣ ما ينصب مفعولين أو أكثر
٤- ضمير الشأن
٥ التنازع فى العمل
٦- الاشتغال
٧- الإلغاء
٨- البدل
٩- عمل اسم الفاعل
١٠- عمل المصدر
١١- الصفة المشبهة
١٢- المصادر
١٣- اسم الفاعل
١٤- حذف العامل
١٥- التحذير
١٦- المفعول معه
١٧- المفعول المطلق
١٨- المفعول لأجله
١٩- الحال
٢٠- الظرف
٢١- الجر
٢٢- التوابع
٢٣- النعت السببى
٢٤- علم الجنس

٢٥- المبتدأ
٢٦- إن وأخواتها
٢٧- كم
٢٨- النداء
٢٩- الندبة
٣٠- الاختصاص
٣١- الترخيم
٣٢- " لا " التى لنفى الجنس
٣٣- الاستثناء
٣٤- الضمير
٣٥- أى
٣٦- المضارع
٣٧- النواصب والجوازم
٣٨- إن وأن المشددتين
٣٩- إن وأن المخففتين
٤٠- أم وأو

الجزء الثانى من الكتاب :

تعرض المؤلف فى الجزء الثانى للموضوعات الآتية على الترتيب:

١- ما ينصرف وما لا ينصرف
٢- الإضافة وهويات النسبة
٣- التثنية
٤- الجمع
٥- الإضافة لياء المتكلم
٦- التصغير
٧- حروف القسم
٨- حذف تنوين العلم إذا وصف بابن
٩- النون الثقيلة والخفيفة
١٠- الفعل المضعف
١١- المقصود والممدود
١٢- العدد
١٣- بناء الأفعال " صيغها "
١٤- الإمالة
١٥- همزة الوصل
١٦- التقاء الساكنين
١٧- الوقف
١٨- حروف الزوائد
١٩- الإعلال والإبدال
٢٠- الإدغام

وقد سار في موضوعاته وأقسامه الأربعة على التفصيل الآتي :

- القسم الأول : قسم الأسماء ويتضمن :

١- معنى الكلام
٢- أصناف الاسم
٣- اسم الجنس
٤- العلم
٥- الاسم والكنية واللقب
٦- المفرد والمركب
٧- المنقول والمرتجل
٨- الاسم المعرب
٩- ما يمنع من الصرف والجر
١٠- ما يسوفى منه حركة الإعراب والتنوين

- وجوه الإعراب :

١- المرفوعات : الفاعل - المبتدأ والخبر - خبر إن وأخواتها - خبر لا التى لنفى الجنس .

٢- المنصوبات : المفعول المطلق - المفعول به المنصوب باللازم - إضماره - ومنه المنادى وما يقصد به الاختصاص ، المنصوب على التحذير ، وما أضمر عامله على شريطة التفسير " الاشتغال " - الترخيم - التحذير ، المفعول فيه ، المفعول معه ، المفعول لأجله الحال - التمييز - الاستثناء .

٣- المجرورات : الإضافة ، التوابع ، التأكيد ، الصفة ، البدل ، عطف البيان .

٤- ومن أصناف الاسم المبنى ، أسماء الإشارة والموصولات ، وأسماء الأفعال ، والأصوات ، والظروف ، والمركبات ، والكنايات ، والمثنى ، والمجموع بأنواعه ، والنكرة والمعرفة ، والمذكر والمؤنث ،

والمصغر ، المنسوب ، العدد ، المقصود ، الممدود ، الأسماء المتصلة بالأفعال أى المشتقات وهى ثمانية :

١- اسم الفاعل   ٢- اسم المفعول
٣- الصفة المشبهة   ٤-اسم التفضيل
٥- اسم الزمان   ٦- اسم المكان
٧- اسم الآلة   ٨- المجرورات والمزيد من الأسماء

القسم الثانى : قسم الأفعال ويتضمن ما يأتى :

١- اقسام الفعل   ٢- وجوه إعراب المضارع
٣- المرفوع   ٤- المنصوب ومواضع نصبه
٥- المجزوم ومواضع جزمه   ٦- المتعدى وغير المتعدى
٧- المبنى للمفعول   ٨- أفعال القلوب
٩- الأفعال الناقصة   ١٠- أفعال المقاربة
١١- فعلا المدح والذم   ١٢- فعلا التعجب
١٣- المجرد والمزيد من الأفعال

القسم الثالث : قسم الحروف ويتضمن ما يأتى :

١- حروف الإضافة "حروف الجر"   ٢- الحروف المشبهة بالفعل " إن " وأخواتها
٣- حروف العطف   ٤- حروف النفى
٥- حروف الاستثناء   ٦- حروف الخطاب

والكتاب خال من المقدمة والخاتمة وليس فيه تقسيم أو ترتيب كالذى نجده فى كتب النحو التى جاءت بعده ، وليس فيه فى أكثر الأحوال تلــك المصطلحات النحوية التى نعرفها .

وفيما يلى أمثلة من عناوين أبوابه توضح ما أشرنا إليه هنا :

١- الفاعل الذى لم يتعده فعله إلى مفعول ، يعنى الفعل اللازم .

٢- المفعول الذى لم يتعده فعله ، ولم يتعد إليه فاعــل ، يعنــى المبنــى للمجهول .

٣- الفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعولين ، فإن شــئت اقتصــرت علــى المفعول الأول وإن شئت تعدى إلى الثانى كما تعدى إلى الأول ، يعنى المفعولين اللذين ليس أصلهما المبتدأ والخبر مثل أعطى و كسا وألبس.

٤- الفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعولين ، وليس لك أن تقتصر على أحد المفعولين دون الآخر ، يعنى المفعولين اللذين أصلهما المبتدأ والخبر .

٥- الفعل الذى يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعــول ، واســم المفعــول والفاعل فيه لشئ واحد ، وذلك مثل : كان – صار – ما دام ، ليس ، وما كان نحوهن من الفعل مما لا يستغنى عن الخبر ، يعنى النواسخ .

هذه الأمثلة من موضوعاته ومصطلحاته .

أما الطريقة التى يتبعها فى عرض هــذه الموضــوعات ، فإنهــا مقرونة بالأمثلة الإيضاحية التى يبدأ بها فى كثير من الأحوال ، وليســوق فى خلال الشرح طائفة منها ويقرن ذلك بالشواهد .

وفى الكتاب أكثر من ألفى شاهد من شعر الجاهليين والإسلاميين وقد أصبح كثير من شواهده وأمثلته شائعًا بين النحاة فساقوه فى كتبهم واخذه اللاحق منهم عن السابق .

والكتاب مجهود علمى يدل على دقة سيبويه فى الإلمام بالقواعد النحوية ، وهى صورة لجهوده وجهود الطبقات التى سبقته وقد قام بجمعها وتنظيمها على الأسلوب الذى ارتآه .

على أن هناك شكًا فى تصنيف سيبويه هذا الكتاب ، ولكن لا محل للمغالاة فى هذا الشك .

فما تضمنه كتاب سيبويه هو خلاصة وافية ألمت بجميع المسائل النحوية ، وقد وضعت بطريقة يتجلى فيها الأسلوب العلمى لعرض المسائل فى تلك العصور ، وتدل على فضل سيبوية ، وعلى عنايته هو ومن سبقوه بالبحث وتتبع الخصائص التى اشتملت عليها لغة العرب .

شرح كتاب سيبويه

وقد اهتم النحاة بهذا الكتاب ، وعنى الكثيرون منهم بشرحه والتعليق عليه :

١- شرحه أبو سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ هـ شرحًا أعجب به المعاصرون له .

٢- شرحه على بن سليمان المعروف بالأخفش الأصغر المتوفى سنة ٣١٥ هـ .

٣- شرحه أبو الحسن على بن سليمان الرمانى المتوفى سنة ٣٨٤هـ .

٤- شرحه أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ

٥- شرحه ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .
كما شرحه غير هؤلاء من النحاة .

كتاب المفصل الزمخشرى

الزمخشرى علم من أعلام الثقافة العربية ، وله آثــار جليلــة فــي التفسير والحديث والأدب والنحو .

وكتاب " المفصل " له شأن فى علم النحو ، وقد نال حظًا كبيــرًا من الدرس والشرح ، فقد شرحه ابن الحاجب وسماه الإيضاح ، وشــرحه العكبرى و ابن مالك وابن يعيش وكثيرون غيرهم ، وشرح ابن يعيش لهذا الكتاب ذائع متداول ومرجع للدارسين .

ويشير الزمخشرى فى مقدمة هذا الكتاب إلى أهم الأســباب التــى دعته إلى تأليفه وهى : شعوره بما لدى المسلمين من رغبة فى معرفة كلام العرب وشفقته على أشياعه المحبين للأدب .

فهذا الشعور دفعه إلى إنشاء كتاب فى الإعراب يحيط بكافة الأبواب ورتبه ترتيبا يحقق الغاية من أقرب سبيل .

وقد سماه كتاب المفصل فى صنعه الإعراب ، وقسمه أربعة أقسام :القسم الأول : فى الأسماء ، والثانى فى الأفعال ، والثالث فى الحروف ، والرابع فى المشترك من أحوالها ، وصنف كل قسم تصنيفًا ، وفصل كــل صنف تفصيلا فأرجع بذلك كل شئ إلى أصله .

ونظرة إلى الكتاب تظهر أن الزمخشرى قد حقق ما قال فالكتــاب مؤلف تأليفا يجمع بين المتجانسين من الموضوعات ، وهو يمثل مرحلة من مراحل التدرج فى إخراج علم النحو :

وقد ألم بما فى كتاب سيبويه فى نظام علمي واضح وبأسلوب أقرب إلى ما نعرف الآن من تقسيم واصطلاحات فى هذا العلم .

٧- حوف الصلة الزائدة ٨- حروف التفسير

٩-الحرفان المصدريان" ما ، أن " ١٠- حروف التخصيص

١١- حروف التقريب " قل ط ١٢- حروف الاستقبال

١٣- حرف الاستفهام "الهمزة" هل ١٤- حرف الشرط " أن ، لو "

١٥- اقتران الجواب بالفاء ١٦- حرف التعليل " كى "

١٧- حرف الردع " كلا "

١٨- اللامات وهى سبعة أنواع " لام التعريف - لام جواب القسم - اللام الموطئة - لام جواب لو ولا - لام الأمر - لام الابتداء .

١٩- تاء التأنيث الساكنة ٢٠- التنوين وهى خمسة أضرب

٢١- النون المؤكدة ٢٢- هاء السكت

٢٣- شين الوقف ٢٤- حرف الإنكار .

القسم الرابع:وهو القسم المشترك ، ويتضمن ما يأتى:

١- الإمالة ٢- الوقف

٣- القسم ٤- تخفيف الهمزة

٥- التقاء الساكنين ٦- حكم أوائل الكلمة "همزة الوصل" زيادة الحروف

٧- إبدال الحروف ٨- الاعتدال

٩- الإدغام

هذه هى مباحث الكتاب والنظرة إليها تبين نظامًا وجمعًا للمتجانس من الموضوعات مما لم يكن فى كتاب سيبويه ، كذلك تبين أغلب المصطلحات المستعملة الآن فى الكتب .

والكتاب سهل واضح فى عباراته وأسلوبه العلمى ، وليس فى الكتب التى بينه وبين كتاب سيبويه ما وصل إلينا كتاب عالج المباحث النحوية على هذا النحو من الكمال والشمول وإنما هى مؤلفات فى موضوعات نحوية خاصة أو فى مباحث صرفية هى أقرب إلى الصيغة اللغوية ، أو هى بحوث نحوية تجئ فى ثنايا الموضوعات الأدبية وفى خلال شرح القصائد أو المقطوعات أو غيرها .

فكتاب المفصل يعتبر مرحلة تامة النمو ، وحلقة كاملة الوضع فى سلسلة البحوث النحوية .

كتب ابن الحاجب

جاء ابن الحاجب بعد الزمخشرى بأكثر من مائة سنة ، ولـــه فـــى النحو والصرف كتابان هما " الكافية " في النحو و " الشافية " فى الصرف، وهما ذائعان بين كتب هذين العلمين وقد عنى بشرحهما كثر من العلماء .

شروح الكافية : وأهمها شرح الاستراباذى : الشيخ رضى الـــدين محمد بن الحسن المتوفى سنة ٦٨٦هـــ .

وقد أثنى عليه السيوطى فقال : " لم يؤلف عليها الكافية " بـــل ولا على غالب كتب النحو مثله جمعًا وتحقيقًا وحسن تعليل – وقد أكب الناس عليه وتداولوه ، واعتمد شيوخ هذا العصر ومن قـــبلهم فـــى مصـــنفاتهم ودروسهم وله فيه أبحاث كثيرة مع النحاة واختبارات جمة .

شرح الشافية : وأهمها شرح الاستراباذى وشرح الجابردى احمـــد ابن الحسن فخر الدين المتوفى سنة ٧٤٦هــــ . ومباحث كتاب الكافية تسير فى اصطلاحاتها وفى نهجها العام وفى ترتيبها على طريقة تشبه فى كثير من النواحى ما اتبعه الزمخشرى فى كتابه المفصل .

فقد بدأ بشرح الكلمة والكلام والاسم المعرب ، والإعراب وعلاماته ثم تكلم على المرفوعات من الأسماء ، وعلى المنصوبات ، والمجرورات ثم على التوابع ، ثم على النكرة والمعرفة ، وعلـــى المـــذكر والمؤنـــث ، والمثنى والجمع ، وعلى المشتقات ثم تكلم على الفعل وأقسامه وأنواعـــه ، ثم على الحرف وأنواع الحروف .

ومباحث كتاب الشافية تسير في مادتها وطريقتها على نهج يقــرب مما نجده الآن في كتب الصرف المعروفة .

وإلى جانب ذلك اشتملت على بحوث في مخارج الحروف وصفاتها ، وفي الخط أي الرسم الإملائي ، كلا الكتابين على شكل متن موجز على الطريقة المتبعة في تأليف المتون .

كتب ابن مالك

وابن مالك من علماء الأندلس والمغرب وقد عاش فى القرن السابع الهجرى وتوفى سنة ٦٧٢هـ .

ومن كتبه الألفية المسماة " الخلاصة " ، وكتاب " لأميه الأفعال "، وكلا الكتابين ذائع متداول بين الدارسين وقد نال كتاب الخلاصة عناية كبيرة ممن تصدوا للتعليق عليه بالشروح والحواشى لا سيما شرح ابن عقيل ، وشرح الأشمونى ، وحاشية الصبان .

وقد أوضح الكتاب جميع المباحث النحوية مما يتصل بالمرفوعات والمنصوبات والمجرورات والمشتقات وبالفعل وإعرابه وبالتصغير والنسب والوقف والإمالة ، وبالإعلال والإبدال والإدغام .

وقد ألمت شروح هذا الكتاب وحواشية مما يحتاج إليه من استثناء الشروط وما يتطلب من شواهد .

كتاب لامية الأفعال :

كتاب لامية الأفعال نظم موجز أوضح فيه ابن مالك الأفعال والمشتقات وما يتصل بها .

وقد شرحه الشيخ بحرف اليمنى ، وكتب الشيخ أحمد الرفاعى حاشية على هذا الشرح وهى متداولة وقد شرحها علماء آخرون .

وكتاب لامية الأفعال يتضمن المباحث الآتية :

أبنية الفعل وتصاريفه – أحكام اتصال الفعل الماضى بناء الضمير أو نونه – أبنية الفعل المزيد فيه – فعل ما لم يسم فاعله – فعل الأمر –

أبنية أسماء الفاعلين والمفعولين – أبنية المصادر مفعل ومفعل بكسر العين وفتحها – مفعلة بفتح الميم والعين – اسم الآلة .

كتب ابن هشام المتوفى سنة ٧٦١هـ

ظهر ابن هشام بعد ابن مالك بنحو ١٠٠ عام وله مؤلفات كثيرة فى النحو أشهرها :

١- قطر الندى ٢- شذور الذهب ٣- أوضح المسالك

٤-مغنى اللبيب .

والكتاب الأول مقدمة على هيئة متن ألم فيها المؤلفون بأبواب النحو فى إيجاز وترتيب ثم شرحها .

أما الكتاب الثانى : شذور الذهب على هذا المنهج أيضًا ، فهو متن وشرح للمؤلف ، ولكن على مستوى أعلى من قطر الندى .

والكتابان متقاربان فى المنهج فى الموضـــوعات وفـــى الطريقـــة ،ويسيران بالمتعلم سيراً متدرجاً سهل المأخذ .

والكتاب الثالث إيضاح لألفية ابن مالك قريب المأخذ بعيد عما فـــى المتون المنظومة من التواء فى العبارة أو غموض فى المعنى .

والكتاب الرابع وهو " مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، كتاب قيم وله شأن فى البحوث النحوية .

وقد عنى كثير من العلماء بشرحه و التعليق عليه وإعراب شواهده، ويمتاز بالطريقة التى اتبعها مؤلفه فى ترتيب المباحث وتنظيم الموضوعات النحوية ، فقد حصر بحوثه فى ثمانية أبواب :

الأول : فى تفسير المفردات وذكر أحكامها .

الثانى : فى تفسير الجمل وذكر أقسامها وأحكامها .

الثالث : فى ما ذكر ما يتردد بين المفردات والجمل وهو الجار والمجرور وذكر أحكامها .

الرابع : فى ذكر أحكام يكثر دورها ويقبح بالمعرب جهلها .

الخامس : فى ذكر الأوجه التى يدخل على المعرب الخلل أو الاعتــراض من جهتها .

السادس : فى التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها .

السابع : فى كيفية الإعراب .

الثامن : فى ذكر أمور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصــر مــن الصــور الجزئية .

وقد نحا ابن هشام فى طريقته وايضاح موضوعات كتابه المغنــى منحى ينم على إبكار فى الاتجاه ، والسير علــى نهــج بعــض الســابقين الأوليين من علماء اللغة والنحو كابن جنى .

وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته إلى ذلك ، وفــى مقدمــة كتــاب المغنى ذكر ابن هشام مآخذه على كتب النحاة والتى عمل علــى اجتنابهــا فقال : واعلم أنى تأملت كتب الأعراب فإذا السبب الذى اقتضــى طولهــا ثلاثة :

أحدها : كثرة التكرار – فإنها لم توضع لإفادة القوانين الكلية بــل للكلام على الصور الجزئية ، فتراهم يتكلمون على التركيب المعين بكلام ، ثم حيث جاءت نظائره أعادوا ذلك الكلام فجمعت هذه المســائل ونحوهــا مقررة محررة فى الباب الرابع من هذا الكتاب فعليك بمراجعته فإنك تجــد به كنزا واسعاً تنفق منه ، ومنهلاً سائغاً ترده وتصدر عنه .

الأمر الثانى : إيراد ما لا يتعلق بالإعراب " النحو " كـــالكلام فـــى اشتقاق " اسم " أهو من السمة كما يقول الكوفيون أم من السمو كما يقـــول البصريون والاحتجاج لكل من الفريقين وترجيح الـــراجح مـــن القـــولين وكالكلام على ألفة لم حذفت من البسملة خطا وعلى باء الجر ولامـــه لـــم كسرتا لفظاً ؟

وكالكلام على ألف " ذا " الإشارية أو زائدة هى كما يقول الكوفيون أم منقلبة عن ياء هى عين واللام ياء أخرى محذوفة كما يقول البصريون .

والأمر الثالث : إعراب الواضحات كالمبتدأ أو خبـــره ، والفاعـــل ونائبه ، والجار والمجرور ، والعاطف والمعطوف .

كتب السيوطى المتوفى ٩١١ هـ

ظهر بعد ابن هشام بنحو قرن ونصف من الزمان وهو مؤلف له أثر فى علوم مختلفة ومن كتبه المشهورة فى علم النحو .

١- كتاب جمع الجوامع وشرحه المسمى " همع الهوامع " وقد ألم هذا الكتاب بأطراف المباحث النحوية وأوجه الخلاف فى مسائلها ، وحرص مؤلفه على أن يحشد فيه جميع ما حوته كتب النحو من آراء ، كما صرح بذلك فى مقدمته .

أقسام الكتاب :

قسم الكتاب إلى مقدمة وسبعة كتب :

١- المقدمة : وقد تضمنت المقدمة تعريف الكلمة وأقسامها والإعراب والبناء ، وأنواع الإعراب فى الأسماء والأفعال والنكرة والمعرفة وأنواع المعارف .

والكتب السبعة تضمنت ما يأتى :

الأول : فى العمد : وهى المرفوعات من الأسماء والأفعال .

الثانى : فى الفضلات : وهى المنصوبات .

الثالث : فى المجرورات وما حمل عليها وهى المجزومات .

الرابع : فى العوامل .

الخامس : فى التوابع .

السادس : فى الأبنية

السابع : فى التصريف .

الخاتمة : ثم خاتمة فى الخط أى الرسم الإملائى .

أطوار التأليف النحوى

الطور الأول : طور الوضع والتكوين

يؤرخ العلماء لهذا الطور بعد أبى الأسود الدؤلى بنصر بن عاصم الليثى المتوفى ٨٩هـ إلى عهد الخليل بن أحمد الفراهيدى ت ١٧٥هـ وهذا الطور بصرى خالص وبرز فيه طبقتان من علماء البصرة وهما :

الطبقة الأولى : تبدأ من عهد نصر بن عاصم ت ٨٩هـ إلى يحيى بن يعمر ١٢٩هـ وأشهر علمائها .

١- نصر بن عاصم الليثى ت ٨٩ هـ

٢- عنبسة الفيل ت بعد ١٠٠ هـ

٣- عبد الرحمن بن هرمز ت ١١٧ هـ

٤- يحيى بن يعمر العدوانى ت ١٢٩هـ

منهج هذه الطبقة : كان منهج هذه الطبقة مبسطًا ، إذ وضع أبو الأسود القواعد العامة فى الأبواب التى سبقت الإشارة إليها مقصورة على السماع ، ولم تصلنا عن هذه الطبقة كتب منظمة يمكن الاعتماد عليها ، وقد قام فيها نصر بن عاصم فى عهد عبد الملك بن مروان بإعجام المصحف بالنقط المعروفة الآن بعد أن أصلح من النقط التى وضعها أبو الأسود لتدل على جهة الصوت ، وذلك بتحويلها إلى الحركات المعروفة فحلت نقط نصر بن عاصم محل نقط أبى الأسود وتحولت نقط أبى الأسود إلى ضمه أو ضمتين أو فتحة أو فتحتين و كسرة أو كسرتين إلى الآن .

غير أننا نشير إلى التفريق بين نوعين من التنقيط ، فالنقط التى وضعها نصر بن عاصم هى نقط الإعجام التى تفرق بين الباء والتاء والثاء .

لكن نقط أبى الأسود هى النقط التى تشير إلى الإعراب و الوظيفة التى تحولت فيما بد إلى الحركات على يد الخليل بن احمد الفراهيدى غير أننا نود أن نلفت نظر الدارس إلى أن العربية بوظائف مفرداتها وكيفية نطقها لم يطرأ عليها اى تحول فكما استعملها العرب ظلت كما هى غير أن ما طرأ عليها من لحن بدأ من العصر العباسى إلى العصور التالية :

الطبقة الثانية من الطور الأول :

تبدأ هذه الطبقة من عهد عبد الله بن أبى اسحاق ١١٧هـ إلى عهد أبى عمرو بن العلاء ١٥٤هـ ومن علمائها :

١- عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى ت ١١٧هـ

٢- عيسى بن عمر ١٤٩هـ

٣- أبو عمرو بن العلاء ١٥٤ هـ

منهج هذه الطبقة :

١- نهجت هذه الطبقة منهج الاستنباط واستعمال القياس فوضعته كثيرًا من أصول النحو ومسائلة .

٢- اقتصرت مباحثهم – غالبًا – على البحث فى أواخر الكلمات ، لأنها هى التى انتشر وشاع فيها اللحن .

٣- دون أصحاب هذه الطبقة مباحثهم فى مؤلفات .

٤- امتزجت مباحث النحو فيها بمباحث اللغة والأدب وغيرهما من فروع اللغة .

٥- عن علماء هذه الطبقة تلقى رؤساء أهل الكوفة النحو فلقد ذهب أبو جعفر الرؤاسى ١٨٥هـ إلى البصرة فأخذ عن عيسى بن عمر وأبى عمرو بن العلاء ثم رجع إلى الكوفة فنشر علمه هناك كما أخذ عنهم الكسائى ١٨٩هـ الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لمدرسة الكوفة بعد أن تعلم النحو من علماء البصرة كالخليل بن أحمد الفراهيدى .

الطور الثانى : طور النمو والنشوء والارتقاء

يعد هذا الطور مشتركا بين المدرستين البصرية والكوفية ويبدأ من عهد الخليل بن أحمد الفراهيدى ١٧٥هـ وأبى جعفر الرؤاسى وف هذا الطور ثلاث طبقات لكل من البصريين والكوفيين الثالثة والرابعة والخامسة للبصريين ، والأولى والثانية والثالثة لكوفيين .

الطبقة الثالثة البصرية :

تبدأ هذه الطبقة من عهد الأخفش الأكبر إلى عهد يونس ومن أشهر علماء هذه الطبقة ما يأتى :

١- الأخفش الأكبر

٢- الخليل بن أحمد الفراهيدى .

٣- يونس بن حبيب .

الطبقة الأولى من الكوفيين : يقابل الطبقة الثالثة من البصريين الطبقة الأولى من الكوفيين ومن أشهر علمائها :

١- أبو جعفر الرؤاسى .

٢- معاذ الهراء ١٨٧ هـ .

الطبقة الرابعة البصرية : تبدأ هذه الطبقة من عهد سيبويه ١٨٠هـ إلى عهد أبى زيد الأنصارى ٢١٥هـ ومن أشهر علمائها :

١- سيبويه .

٢- اليزيدى محمد بن يحيي بن المبارك .

٣- أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصارى الخزرجى .

٤- الاصمعى أبو سعيد عبد الملك بن قريب .

الطبقة الثانية من الكوفيين : من أشهر علماء هذه الطبقة الكسائى ، بل هو المؤسس الحقيقى – كما يقال – لمدرسة الكوفة .

الطبقة الخامسة من البصريين : كانت هذه الطبقة فى عهد الأخفش الأوسط ٢١١ هـ وقطرب ٢٠٦هـ .

الطبقة الثالثة من الكوفيين : ومن أشهر علماء هذه الطبقة :

١- الأحمر أبو الحسن على بن المبارك المتوفى ١٩٤هـ

٢- الفراء أبو زكريا يحيي بن زياد بن عبد الله بن مروان الديلمى مولد بنى أسد المعروف بالفراء المتوفى ٢٠٧هـ .

٣- اللحيانى أبو الحسن على بن المبارك ابن حازم الحيانى .

منهج هذا الطور وأثره

١- امتد البحث فى هذا الطور إلى الصيغ والأبنية كما اتسعت مباحث الإعراب وقطعت شوطا بعيدا واندرجت مباحث الأبنية والصيغ فى مباحث النحو فكان علم النحو يعم الاثنين ولذا عرف فى هذا الطور بأنه علم يعرف به أحوال الكلمة العربية إفرادًا وتركيبًا .

٢- استقل علم النحو عن المباحث اللغوية الأخرى من أمثال علـم اللغـة والأدب والأخبار ، وإن حرص بعض العلماء على أن يمزج فى بعض مؤلفاته النحو باللغة والأدب والأخبار وما إلى ذلك مثل ما فى كتـاب العين وبعض كتب المتأخرين كأمالى الزجـاجى ٣٣٩هـ و ابـن الشجرى ٥٤٢هـ والكامل للمبرد .

٣- اشتدت المنافسة بين المدرستين البصرة والكوفة واختلفت نزعة كـل عن الأخرى فى وضع قواعدها ومقاييسها ومصـادرها وتعليلاتهـا، وحرصت كل مدرسة على أن تفوز فى الغلبة على الأخرى بشـرف استكمال هذا العلم، واكتمال فروعه ، فنشـبت بينهمـا نـار العـداوة فتجادلوا وتخاصموا .

٤- كان للكوفيين فضل السبق فى علم الصرف علـى يـد أبـى جعفـر الرؤاسى فقد عنوا بمسائله حتى فاقوا فيه على البصريين ، وسـبقوهم إلى استنباط كثير من قواعده ، فعدوا المؤلفين الحقيقيـين فـى علـم الصرف ؛ إذ كانت مباحث الصرف عند البصريين متفرقة فى المرتبة الثانية ، ولم يتسع لها البحث فى الطور الأول الذى أفردوه بالمباحـث الأعرابية ، و بدءوا يفسحون له مادة النحو على يد الخليل ويـونس ، وكان يعاصرهما أبو جعفر الرؤاسى الذى ذهب ليأخذ علم النحو مـن أهل البصرة ، وحينما رجع إلى الكوفة وجد ابن أخية معـاذ الهـراء يشتغل بالأبنية فاشترك معه فيها إلى أن غلبت عليهما النزعة الصرفية

٥- كثرت فى هذا الطور المؤلفات النحوية ، إذ انتشرت حركة التـأليف ، ومن أشهر ما وصل إلينا منه كتاب العين للخليل والكتاب لسـيبويه ، والفيصل للرؤاسى ، والمصادر للكسائى وفعل وأفعل ومعانى القـرآن للفراء .

الطور الثالث : طور النضج والكمال

يبدأ هذا الطور من عهد كل من الجرمي البصري ٢٢٥هـ وابن سعدان الكوفي ٢٣١هـ إلى عهد المبرد ٢٨٥هـ خاتم البصريين وثعلب ٢٩١هـ خاتم الكوفيين ، ويوجد في هذه الطور طبقتان لكل من البصريين والكوفيين السادسة والسابعة البصريتان يقابلهما الرابعة والخامسة الكوفيتان .

الطبقة السادسة البصرية :

١- الجرمي صالح بن اسحاق أبو عمر الجرمي البصري ت ٢٢٥هـ .

٢- التوزي بتشديد التاء والواو المفتوحتين نسبة إلى توز هو أبو محمد عبد الله بن محمد مولى قريش ت ٢٣٨هـ .

٣- المازني أبو عثمان بكر بن محمد ولى بني سدوس ت ٢٤٧هـ .

٤- أبو حاتم السجستاني أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان بن القاسم ت ٢٥٠هـ .

٥- الرياضي أبو الفضل العباسي بن الفرج الرياشي ٢٥٧هـ

الطبقة الرابعة من الكوفيين : ومن أشهر علمائها :

١- ابن سعدان أبو جعفر محمد بن سعدان الضرير الكوفي النحوي المقرئ ٢٣١هـ

٢- الطوال : أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن قادم الطوال من أهل الكوفة ٢٤٣هـ

٣- ابن السكيت : هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق السكيت أخذ عن أبي عمرو الشيباني المتوفي ٢٤٤هـ .

الطبقة السابعة من البصريين :

ومن أشهر علمائها المبرد محمد بن يزيد بن عبد الأكبـــر الأزدى البصرى أبو العباسى المبرد إمام العربية ببغداد فى زمانه أخذ عن المازنى والسجستانى . وقال نفطوية ٣٢٣هـــ ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أســـانيد منه .

الطبقة الخامسة من الكوفيين :

ومن أشهر علمائها ثعلب أحمد بن يحيي النحوى بن زيد مولى بنى شيبان إمام الكوفيين فى النحو واللغة فإن من تقدمه من الكـــوفيين وأهـــل عصره منهم .

منهج هذا الطور وأثره

هذا الطور كان ملتقى علمائه في بغداد ، إذ هاجروا من البصرة والكوفة إلى بغداد بسبب الاضطرابات ، وكان يجتمع الفريقان فتحدث بينهما المناظرات والمناقشات والأحن والأحقاد ،واجتهد كل من تأييد مذهبه وإن خفت بعد ذلك حدة العصبية ، وهدأت بعد المبرد وثعلب ويمكن تلخيص منهج هذا الطور وأثره فيما يلي :

١- استقلت لمباحث النحوية عن الصرفية أصبح لكل مبحث خاص ، وأول من سلك هذا الطريق المازنى حيث أنه فى الصرف وحده ، وإن تعددت المسالك بعده فى المباحث فمنهم من سلك مسلكه فألف فى الصرف وحده ، ومنهم من خلط بين الاثنين إلا أنه قدم النحو أولاً ثم تحدث عن الصرف بعد ذلك .

٢- أكملوا ما فات السابقتين ففصلوا ما أجملوا وبسطوا ما أبهموا واختصروا فأكملوا التعريفات وهذبوا الاصطلاحات .

٣- دخلت بغداد ميدان دراسة النحو مع أختيها البصرة والكوفة .

٤- كان الترجيح بين المذهبين من أهم الخصائص .

٥- ألف فى هذا الدور كثير من المؤلفات التى تحكى المسائل الخلافية بين المذهبين البصرى والكوفى ففتحت الباب بعد ذلك للمؤلفين فى هذا النوع من الموضوعات.

٦- كان هذا المذهب بداية لغرس نبته المذهب البغدادى الذى فيه طور المقارنة والترجيح .

الطور الرابع : دور الترجيح وهو طور المذهب البغدادى

يبدأ هذا الطور من أوائل القرن الرابع الهجـــرى ، وقــد اختلفــت مشارب علماء هذا الطور تبعا لمن تتلمذوا عليه فمــنهم مــن أخــذ عــن البصريين فغلبت عليه النزعة البصرية.

ومنهم من أخذ عن الكوفيين فغلبت عليه النزعة الكوفية ، ومــنهم من أخذ عن المذهبين ونظر إلى العلم نظرة خاصة متجردة عن العصــبية ومن هنا يمكن تقسيم علماء هذا الدور إلى ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : أصحاب البصريين .

المجموعة الثانية : أصحاب الكوفيين .

المجموعة الثالثة : المتحررين من قيود العصبية المذهبية .

البغداديون أصحاب البصريين : ومن أشهر علمائها :

١- الزجاج ت ٣١١هـ وهو أبو اسحاق إبراهيم بن السرى بــن ســهل الزجاج وكان من أكابر أهل العربية من أهل الفضل .

٢- ابن السراج ٣١٦هـ هو أبو بكر محمد بن السرى نشا ببغداد وكــان من أحدث أصحاب المبرد سنا مع ذكاء وفطنة ، فكان المبرد يقربــة وقرأ عليه كتاب سيبوية .

٣- الزجاجى ت ٣٣٩هـ هو أبو القاسم عبد الرحمن ابن اسحاق الزجاجى المشهور فى أيدى الناس . نسب إلى شيخه الزجاج الذى أخذ عنه كما أخذ عن أبى بكر بن السراج وعلى بن سليمان الأخفش .

٤- ابن درستويه : ٣٤٧هـ هو أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه الفارسى النحوى : أخذ عن المبرد وعبد الله بن مسلمين قتيبة وعــن

الدارقطني ، وكان شديد الانتصار للبصريين في النحو واللغة ، ومــن مؤلفاته : الإرشاد في النحو ، وشرح الفصيح ، وغريــب الحــديث ، والمقصور والممدود ، ومعاني الشعر .

٥- السيرافي ٣٦٨هـ هو الحسن بن عبد الله بن المزربــان أبــو ســعيد السيرافي النحوي كان أبوه مجوسيا اسمه بهزاد فسماه أبو سعيد عبــد الله درس أبو سعيد ببغداد علوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض وقرأ القرآن على أبي بكر بن مجاهد ٣٢٤هـ واللغة على ابن دريد ، وأخذ النحو عن ابن السراج ، وولي القضاء ببغداد ، وأفتى في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة فما وجد له خطأ وما عثر له على زلة . ومن تصانيفه ، شرح كتاب سيبوية لم يسبق إلى مثله ، ويقال – إن أبا على الفارسي وغيره من معاصرية حســدوه عليــه ، ومنها ألفات القطع والوصل ، ومنها شرح شواهد سيبوية والمدخل إلى كتاب سيبوية ، والوقف والابتداء .

٦- الفارسي ٣٧٧ هـ هو أبو الحسن بن أحمد بن عبد الغفــار الفارســي النحوي كان من أكابر أئمة النحويين ، أخذ عن أبي بكر بن السراج ، وأبي اسحاق الزجاج ، وعلت منزلته في النحو حتى فضله كثير مــن النحويين على المبرد ، وأخذ عنه جماعة من حذاق النحــويين كــابن جني ٣٩٢هـ وعلى بن عيسى الربعي ٤٢٠هـ وغيرهما كثير .

ومن تصانيف أبو علي : الحجة في القراءات السبعة ، والتــذكرة، وأبيات الإعراب ، وتعليقه على كتــاب ســيبويه والمســائل البغداديــة ، والقصرية ، والبصرية ، والشيرازية و التعليقية .

أشهر العلماء الذين غلبت عليهم النزعة الكوفية :

١) ابن الأنباري ٣٢٧هـ هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسين الإمام أبو بكر بن الأنباري النحوي اللغوي ، أخذ عن ثعلب ، وكان أعلم الناس وأفضلهم في نحو الكوفيين وأكثرهم حفظًا للغة . ومن مؤلفاته : غريب الحديث ، والهاءات ، والأضداد ، والمشكل ، والمذكر والمؤنث ، والمقصور والممدود ، والواضح في النحو ، واللامات .

٢) ابن خالويه : ٣٧٠هـ هو الحسين بن أحمد بن خالويه دخل بغداد طالبًا للعلم سنة ٣١٤هـ ، وقرأ القرآن على ابن مجاهد والنحو والأدب على ابن نفطوية "٣٢٣هـ" وأبي بكر بن الأنباري وأبي عمرو الزاهد ٣٤٥هـ . ومن أهم تصانيفه : الجمل في النحو ، والاشتقاق ، والحجة في قراءات السبعة ، وإعراب ثلاثين سورة ، والمقصور والممدود، والمذكر والمؤنث .

أشهر علماء بغداد الذين تحرروا من قيود العصبية :

١- ابن قتيبه ت ٢٦٧هـ هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن تيبة الدينوري النحوي الكاتب ، وسمي الدينوي نسبة إلى دينور لأنه كان قاضيها أخذ عن أبي حاتم السجستاني وغيره ، وأخذ عنه أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه وغيره . وكان عالمًا فاضلاً في اللغة والنحو والشعر ، ومن أشهر مصنفاته : غريب القرآن ، وغريب الحديث ، ومشكل القرآن ، ومشكل الحديث ، وأدب الكاتب ، وكتاب المعارف ، وعيون الأخبار ، وطبقات الشعراء .

٢- ابن كيسان : هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان النحوى ، أخذ عن المبرد وثعلب حتى صار أنحى منهما إذ كان يحفظ المذهب البصرى والكوفى . ومن تصانيفه : المهذب فى النحو ، واللامات ، وغريب الحديث ، ومعانى القرآن ، وعلل النحو ، وما اختلف فيه البصريون والكوفيون .

٣- الأخفش الأصغر ٣١٥هـ : وهو على بن سليمان بن الفضل النحوى أبو الحسن الأخفش الأصغر ثالث الثلاثة المشهورين . ومن تصانيفه : شرح كتاب سيبوية ، والتثنية والجمع ، وقد تعرض لهجاء ابن الرومى كثيرا ، وقدم مصر سنة ٢٨٧هـ.

من أعلام النحاة

١ – ابن جنى : ٣٩٢

هو أبو الفتح عثمان ابن جنى كان أبوه مملوكًا روميًا لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدى الموصلى . وكان من حذاق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف وعلمه بالتصريف أقوى وأكمل من علمه بالنحو . ومؤلفاته كثيرة منها الخصائص فى النحو ، وسر صناعة الإعراب ، وشرح تصريف المازنى ، وشرح مستغلق الحماسة ، وشرح المقصور والممدود ، واللمع فى النحو جمعه من شيخه الفارسى ، والمذكر والمؤنث ، ومحاسن العربية ، والمحتسب فى إعراب القراءات الشاذة ، وشرح الفصيح .

وتوفى ابن جنى سنة ٣٩٢هـ بعد أن عمر أكثر من تسعين عاما[١] كان من أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف أخذ عنه الثمانين ٤٤٢هـ وعبد السلام البصرى ، وأبو الحسن السمسمى ٤١٥هـ .

وكان ابن جنى يحضر عند المتنبى ٣٥٤هـ ويناظره فى شئ من النحو من غير أن يقرأ عليه شيئا من شعره أنفة وإكبارًا لسنه وكان المتنبى يقول فيه : هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس .

٢ – الزمخشرى :

هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشرى ، كان واسع العلم كثير الفضل غاية فى الذكاء وجودة القريحة

---

[١] السيوطى : بغية الدعاة ٣٠١

متقنا فى كل علم معتزليًا مجاهرًا باعتزاله حنفيًا ، ورد بغداد وأخذ الأدب عن الحسن بن المظفر أبو على النيسابورى ٤٤٢هـ وأبى مضر الأصبهانى ٥٠٨ه وسمع من أبى سعد الشفانى ، وشيخ الإسلام أبى منصور الحارثى ، لقب بجار الله لأنه جاور مكة كما لقب بفخر خوارزم ، وأصابه خراج فى رجله فقطعها له أحد .

ومن مؤلفاته : الكشاف فى التفسير ، والفائق فى غريب الحديث ، والمفصل فى النحو ، والأنموذج فى النحو ، وشرح بعض مشاكل المفصل ، والقسطاس فى العروض ، والأحاجى النحوية .

٣- أبو البركات كمال الدين بن الأنبارى :-

هو عبد الرحمن محمد النحوى ت ٥٧٧ هـ

لكن يلتبس على كثير مدلول ثلاثة يسمون بابن الأنبارى أولهم أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى صاحب غريب الحديث وخلق الناس وخلق الفرس توفى ٣٠٤ هـ .والثانى ابنه أبو بكر ٣٢٨ هـ الذى مضى الحديث عنه . والثالث كمال الدين هذا ٥٧٧هـ .

كان كمال الدين إمامًا ثقة صدوقًا فقهيًا مناظرًا غزير العلم ورعًا زاهدًا تقيًا عفيفًا ولا يقبل من أحد شيئًا له مؤلفات كثيرة منها : كتاب الإنصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين ، ولإغراب فى جدل الإعراب وميزان العربية ، ونزهة الألباء فى طبقة الأدباء ، والأضداد ، النوادر وعقود الإعراب ، وكتاب كلا وكلتا وكتاب الألف واللام ، وشفاء السائل فى بيان رتبة الفاعل ، والوجيز فى التصديق والبيان فى غريب القرآن ، وشرح ديوان المتنبى وشرح السبع الطوال ، والمقبوض فى

العروض والموجز في القوافي ، وزينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء .

٤- ابن مضاء القرطبي :- ٥٩٢ هـ

هو أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعد بن حريث بن عاصم بن مضاء اللخمي قاضي الجماعة أبو العباس وأبو جعفر الجياني أحد من ختمت بهم المائة السادسة من العلماء .

تقدم في العربية فكانت له آراء فيها ومذاهب مخالفة لأهلها ، كان واسع الرواية عارفًا بالأصول والكلام والطب والهندسة والحساب شاعرًا بارعًا ومن مؤلفاته :- الشرق في النحو ، والرد على النحاة ، وتنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان ، وقد ناقضه في هذا التأليف ابن خروف النحوي ٦١٠ هـ بكتاب سماه تنزيه أئمة النحو عما نسب إليهم من الخطأ والسهو . ولد ابن مضاء سنة ٥١٣ هـ بقرطبة وتوفي بأشبلية سنة ٥٩٢هـ.

٥-ابن خروف :-

هو علي بن محمد بن علي نظام الدين أبو الحسن بن خروف الأندلسي النحوي ، أخذ النحو عن ابن طاهر ٥٨٠هـ ثم برز في العربية ، وقرأ النحو بعدة بلاد ثم أقام بحلب مدة .

له مناظرة مع السهيلي ٥٨٣هـ كما أن له ردًا على ابن مضاء القرطبي ومن مؤلفاته : شرح كتاب سيبويه أهداه إلى صاحب المغرب فمنحه ألف دينار ، وله شرح الجمل للزجاجي ، والرد على ابن مضاء في كتابه تنزيه أئمة النحو ، توفي بأشبيليه سنة ٦١٠هـ .

٦-**العكبرى : ت ٦١٦هـ :**

هو عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الإمام محب الـدين أبو البقاء العكبرى البغدادى الضرير النحوى ، منسوب إلى عكبرا ، أخـذ العربية على يحيى بن نجاح ، وابن الخشاب ٥٦٧هـ ، ومـن مؤلفاتـه : إملاء ما من به الرحمن فى إعراب القرآن ، وإعراب الحديث ، وإعـراب الشواذ أو شرح الفصيح ، وشرح خطب ابن نباته ، وسرح اللمع ، وشرح أبيات الكتاب ، واللباب فى علل البناء والإعراب والترصيف فى التصريف ، وترتيب إصلاح المنطق على حروف المعجم والاستياب فى الحساب .

٧- **ابن معط : ٦٢٨هـ** هو يحيى بن معط بن عبد النور أبـو الحسـين زين الدين الزواوى المغربى الحنفى النحوى .

قرأ على الجزولى ٦٠٧هـ ، وسمع من ابن عسـاكر ٦٢٠هـ ، وأقرأ النحو بدمشق مدى ثم مصر فى عهد الملك الكامل الأيوبى .

ومن مصنفاته الألفية فى النحو التى أشار إليها ابن مالك فى مقدمة ألفيته ، وله كتاب حواشى على أصول ابن السراج فى النحـو ، وكتـاب شرح أبيات سيبويه ن وله نظم فى القراءات ، ونظـم كتـاب الصـحاح للجوهرى فى اللغة وغيرها كثير ... الخ .

٨- **ابن يعيش : ٦٤٣هـ :**

ابن يعيش يعيش بن على بن يعيش بن محمد بن أبى السريا محمد ابن على بن المفضل بن عبد الكريم ابن محمد بن يحيى النحوى الحلبـى موفق الدين أبو البقاء المشهور بابن يعيش وكان يعرف باب الصانع .

قرأ النحو على فتيان الحلبى ٥٦٠هـ ، وأبى العباس البيزورى وسمع الحديث على الرضى التكريتى ، وأبى الفضل الطوسى ، ورحل إلى بغداد ليدرك أبا البركات كمال الدين الأنبارى ٥٧٧هـ فبلغه خبر وفاته بالموصل ، ثم قدم دمشق وجالس الكندرى ٦١٣هـ ، وتصدر بحلب للإقراء زمانًا ، وطال عمره ، وشاع ذكره .

وكان حسن الفهم لطيف الكلام طويل الروح على المبتدى والمنتهى من مؤلفاته : شرح المفصل ، وشرح تصريف ابن جنى . وتوفى ابن يعيش سنة ٦٤٣هـ وعمره يقارب التسعين .

٩- ابن الحاجب ٦٤٦هـ :

هو عثمان بن عمر بن أبى بكر بن يونس العلامة جمال الدين أبو عمر بن الحاجب الكردى ، وكان أبوه جنديًا كرديًا حاجيًا للأمير غرار ابن الصلاحى حفظ القرآن في صغره ، وأخذ بعض القراءات عن الشاطبى ٥٩٠هـ وسمع منه التيسير ، وقرأ بالسبع على ابن الجود ، وسمع من البوصيرى ٥٩٨هـ وتفقه على يد أبى منصور الأبيارى .

وكان مالكى المذهب الفقهى ، قدم دمشق ودرس بجامعها فى زاوية المالكية ، وأكب الفضلاء عليه ، وشهرته بالنحو أكثر .

ومن مؤلفاته : مختصر الفقه وآخر الأصول ، والكافية فى النحو وشرحها . وقد شرح المفصل بن يعيش فى كتاب سماه الإيضاح ، كما ألف الأمانى فى النحو .

وقد خالف النحاة في مواضع من مؤلفاته ، وأورد عليهم إشكالات وإلزامات مفحمة يعسر الجواب عنها . وتوفى ابن الحاجب عام ٦٤٦هـ .

١٠- ابن عصفور الإشبيلى :

ابن عصفور على بن مؤمن بن محمد بن على أبو الحسن بن عصفور النحوى الحضرمى الأشبيلى ، حامل لواء العربية فى زمانه بالأندلس أخذ عن الدباج ٦٤٦هـ والشلوبين ٦٤٥ ولازمه مدة ، ثم كانت بينهما منافرة ومقاطعة ، تصدر للاشتغال مدة بعدة بلاد وجال بالإندلس وأقبل عليه الطلبة .

وكان أصبر الناس على المطالعة ، ولا يمل من ذلك ، ولم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النحو ولم يتأهل لغيره .

ومن مؤلفاته : المقنع فى التصريف والمقرب وشرحه وشرح الجزولية أو مختصر المحتسب .

١١- ابن مالك ٦٧٢هـ :

هو محمد بن عبد الله بن مالك العلامة جمال الدين أبو عبد الله الطائى الجيانى الشافعى النحوى نزيل دمشق . سمع بدمشق من السخاوى ٦٤٣هـ والحسن بن الصباح ، وأخذ العربية عن جماعة منهم ابن يعيش الحلبى ٦٤٣هـ ، وجالس بحلب ابن عمرون ٦٤٩هـ ، وتصدر بها لإقراء العربية وصرف همته إلى اتقان لسان العرب والقراءات وعللها فكان إليه المنتهى فى نقل غريب اللغة والاطلاع على وحشيها ، وكان فى النحو والتصريف كراً .

فكان الأئمة يتحيرون فى أشعار العرب التى يستشهد بها على اللغة والنحو ويتعجبون من أين يأتى بها ، بل كان أمة فى الاطلاع على

الحديث، فكان أكثر ما يستشهد به القرآن فإن لم يجد الشاهد فيه عدل إلى الحديث ، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى أشعار العرب .

وتصانيفه كثيرة تزيد على الثلاثين منها : الألفية التي تسمى بالخلاصة ، لأنها مختصر لتنظيم كتابه الكافية الشافية الذى نظمه فى ثلاثة آلاف بيت ولقد شرحها ولم يخل لسان من النطق بها ولا عجب فلقد حوت النحو والصرف كله .

ومن مؤلفاته أيضًا : الكافية الشافية ، وعمدة اللافظ فى أصول النحو وشرحه ،وإكمال العمدة ، والتسهيل ، وشرحه ، وإعراب صحيح البخارى ، وكتاب أفعل من فعل ، وكتاب فى الإبدال ، والمالكى فى القراءات .

ويكفيه فخراً ألفيته التى قامت عليها شروح كثيرة منها : شرحه هو وشرح أبنه بدر الدين محمد ، وابن هشام المصرى ٧٦١هـ صاحب المغنى ، وبهاء الدين بن عقيل ٧٦٩ هـ ،وبدر الدين بن أم قاسم المرادى ٧٤٩هـ ونور الدين أبو الحسن الأشمونى ٩٢٩هـ ، وغير هؤلاء كثير ، وتوفى رحمة الله عليه سنة ٦٧٢هـ .

١٢-ابن الناظم : ٦٨٦هـ :

هو بدر الدين محمد بن محمد بن عبد الله ابن مالك الطائى الدمشقى النحوى كان إمامًا فى النحو والمعانى والبيان والبديع والعروض والمنطق جيد المشاركة فى الفقه والأصول ، أخذ عن والده .

من مؤلفاته : شرح ألفية والده ، وشرح كافيته ، وشرح لاميته ، وشرح التسهيل ، والمصباح فى اختصار المفتاح فى المعانى ، ومقدمة فى العروض ، ومقدمة فى المنطق ، وتوفى بدمشق سنة ٦٨٦هـ .

١٣- الرضى ٦٨٦هـ :

هو محمد بن الحسن نجم الملة والدين الاستر ابازى هجر بلاد المشرق وأقام بالمدينة المنورة .

وفى المدينة المنورة شرح الكافية فى النحو لابن الحاجب شرحاً لم يوجد مثله فى غالب كتب النحو ، ثم شرح الشافية فى الصرف لابن الحاجب أيضًا ، وقد أكب الناس على هذين الشرحين وتداولوهما واعتمدها شيوخ ذلك العصر ، ولم يدع الشرحان شيئًا من النحو أو الصرف إلا أوفياه حقه ، وهو فيهما بصرى المذهب غالبا لكنه قد يوافق الكوفيين وأحيانًا ينفرد برأى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ومن الأمثلة التى وافق فيها الكوفيين :

(أ) شرطية أن المدغمة فى " ما " نحو أما أنت منطلقا انطلقت حيث قل : ولا أرى قولهم بعيدًا من الصواب لمساعدة اللفظ والمعنى إياه .

(ب) وافق الكوفيين فى أن المصدر المتسبك من أن والفعل فى مثل قولنا عسى زيد أن يقوم بدل اشتمال حيث قل : والذى أرى أن هذا وجه قريب [١] .

(جـ) وافق الكوفيون فى كون كل من التاء والياء والكاف والهاء هى لضمير وذلك فى مثل قولنا : أنت وإياى وإياك وإياه حيث قال : وليس هذا القول ببعيد كما قدمنا فى أنت .

ومن الأمثلة التى خالف وهؤلاء ما يأتى :

---

[١] شرح الكافية ٢/٣٠٣

أ – خالفهم فى عدهم عطف البيان نوعاً مستقلاً فى التوابع ، فرأى إدماجه فى بدل الكل من الكل وبين عطف البيان بل لا أرى عطف البيان إلا البدل

ب – خالفهم فى أن " إذن " حرف ناصب للمضارع كما يقول البصريون وبعض الكوفيين أو فى أنها اسم أصله إذا ، والنصب بعده بأن مضمرة كما يقول معظم الكوفيين ، إذ يرى أن أصلها " إذ " والنصب بعدها بأن مضمرة .

ج – خالفهم فى جعلهم الصفة المشبهة موضوعة للدوام ، فيرى أنها موضوعة لمجرد الثبوت إذ قال : والذى أرى أن الصفة المشبهة كما أنها ليست موضوعة للحدوث فى زمان ليست أيضا موضوعة للاستمرار فى جميع الأزمنة ، لأن الحدوث والاستمرار قيدان فى الصفة ، ولا دليل فيها عليهما . وتوفى رحمة الله عليه سنة ٦٨٦هـ .

١٤– ابن أجروم : ت ٧٣٣هـ

هو محمد بن محمد بن داود الصنهاجى أبو عبد الله المشهور بابن أجروم ، ومعناه بلغة البربر الفقير الصوفى ، يشتهر بأجروميته التى قامت عليها شروح كثيرة ، واتجاهه فيها اتجاه كوفى لأنه عبر عن الجر بالخفض ، وقال إن الأمر مجزوم ، وذكر كيفما من الجوازم ، وهذه الاتجاهات كوفية . وتوفى ابن أجروم رحمة الله عليه بفاس سنة ٧٣٣هـ .

١٥– أبو حيان ت ٧٤٥هـ

هو محمد بن يوسف بن على ابن يوسف بن حيان الإمام أثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطى النفرى نسبة إلى نفرة قبيلة من البربر ، كان نحوى عصره ولغويه ومحدثه ومقرئه ومؤرخه .

ولد فى إحدى ضواحى غرناطة فأخذ القراءات عن أبــى جعفــر الطبع والعربية عن أبى الحسن الأبدى ٧٠٨هــ وأبى جعفر بــن الزبيــر ٧٠٨هــ وابن أبى الأحوص ٦٧٩هــ .

تقدم فى النحو وأقرأ فى حياة شيوخه بالمغرب ، وســمع لحــديث بالأندلس وأفريقية والإسكندرية ومصر والحجاز مكــن نحــو أربعمائــة وخمسين شيخا .

برع فى النحو والتفسير والعربية والقراءات والأدب والتاريخ وأخذ عنه أكابر عصره وتقدموا فى حياته كالشيخ تقى الدين السبكى ٧٥٥هــــ وابن أم قاسم ٧٤٩هــ ، وابن عقيل ٧٦٩هــ والسمين ٧٥٦هــ ، وابــن مكتوم ٧٤٩هــ ، ومن أشهر تصانيفة البحر المحيط فى التفسير ، واتحاف الأريب بما فى القرآن من الغريب والتذليل والتكميل فى شرح التســهيل، وغاية الأحسان فى النحو ، والمبدع فى التصريف .

١٦- ابن هشام ٧٦١ هــ :

هو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بــن هشــام الأنصارى الشيخ جمال الدين العلامة المشهور ، تلا على ابــن المســراج ٧٤٩هــ وسمع على أبى حيان ٧٤٥هــ ديوان زهير بن أبــى ســلمى ، وحضر دروس التاج التبريزى ٧٤٦هــ وقرأ على التاج الفاكهى ٧٣١ هــ

أتقن ابن هشام العربية ففاق الأقران بل الشيوخ وحدث عــن ابــن جماعة ٧٣٣هــ بالشاطبية وتخرج به جماعة من أهل مصر وغيــرهم ، وانفرد بالفوائد الغريبة والمباحث الدقيقة والاستدراكات العجيبة .

يقول ابن خلدون ٨٠٨هـ عنه : " مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم يقال له ابن هشام أنحى من سيبوية .

ومؤلفاته كثيرة منها : أوضح المسلك إلى ألفية ابن مالك شرحه الشيخ خالد الأزهرى ٩٠٥هـ فى كتابه التصريح على التوضيح وعلق عليه الشيخ الأستاذ المرحوم محمد محى الدين عبد الحميد .

ومن كتبه أيضًا شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب ، وشرح قطر الندى وبل الصدى ، ومغنى اللبيب من كتب الأعاريب .

وتوفى رحمة الله عليه سنة ٧٦١هـ .

١٧- ابن عقيل ٧٦٩ هـ :

هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن عقيل القرشى الهاشمى العقيلة الهندانى الأصل الشافعى المذهب نحوى الديار المصرية ، أخذ القراءات عن التقى الصائغ ٧٢٥هـ ، ثم لازم الجلال القزوينى ٧٤٥هـ ، وأبا حيان وغيرهما ، وبتوأ فى العربية منزلة مشايخه ، فدرس التفسير بالجامع الطولونى بعد شيخه أبى حيان ، ومن أهم تصانيفه تفسير القرآن وصل فيه إلى آخر سورة آل عمران ، ومختصر الجامع النفيس فى الفقه جامع للخلاف والأوهام الواقعة للنووى وله المساعد فى شرح التسهيل أملاه ، وله شرح على الألفية وهو المشهور بشرح ابن عقيل وللسيوطى حاشية على شرحه تسمى بالسيف الصقيل على شرح ابن عقيل .

وتوفى رحمة الله عليه سنة ٧٦٩هـ ودفن بمصر بالقرب من الإمام الشافعى ٢٠٤هـ رضى الله تعالى عنهما .

١٨- الشيخ خالد :

هو خالد زين الدين بن عبد الله ولد بجرجا من بلاد صعيد مصر ، ثم نزح وهو طفل مع أبيه إلى القاهرة ، فحفظ القرآن ، واشتغل مساعداً فى الأزهر .

وقرأ فى العربية على يعيش المغربى ٩٠٠هـ ، والسنهورى ٨٨٩هـ إلى أن حصل من العلم الشئ الكثير وصار مؤلفاً .

ومن مؤلفاته : موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب ، وشرح الأجرومية ، وإعراب الألفية ، وشرح أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ويسمى شرح التصريح بمضمون التوضيح وهو مشهور شرح فيه توضيح ابن هشام ، وحدد المنهج الذى سار عليه فى مقدمته ، وتوفى رحمة الله بقليوبية مصر وهو عائد من الحج سنة ٩٠٥هـ .

١٩- السيوطى :

هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد بن سابق الدينى بن الفخر عثمان بن ناظر الدين بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبى الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الخضرى الأسيوطى الشافعى .

ولد بالقاهرة سنة ٨٤٩هـ وتربى بجزيرة الروضة على ضفاف نيل مصر ، وختم القرآن وسنه دون الثمانى .

نشأ يتيمًا ، وكان ذكيا حفظه وطاف فى سبيل العلم إلى الشام والحجاز واليمن والهند ، ومؤلفاته نحو ستمائة كتاب ورسالة بين مطول وموجز فى الفقه والتفسير والحديث وتاريخ القرآن والتاريخ والنحو

وطبقات النحاة والمفسرين وفى فن اللغة وفقهها ، وأكثر كتبه تداولاً : الأشباه والنظائر ، وجمع الجوامع وشرحه همع الهوامع ، وشرح الكافية والشافية لابن الحاجب ، والاقتراح فى أصول النحو والمزهر فى علم اللغة وأنواعها ، وبغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، وغير ذلك كثير . وكانت وفاته بالقاهرة سنة ٩١١هـ رحمة الله تعالى عليه .

٢٠- الأشمونى :

هو أبو الحسن على نور الدين بن محمد بن عيسى الأشمونى ، ولد بقناطر سباع مصر ، ثم توطن القاهرة مكبًا على العلم مع تقشف فى المأكل والملبس والمفرش ولا هم إلا العلم والمطالعة .

أخذ عن الجلال المحلى ٨٦٤هـ والكافيجى ٨٧٩هـ والتقى الحصنى ٨٢٩هـ ، ومن أشهر مؤلفاته التى خلدت ذكراه شرحه على ألفية ابن مالك سماه منهج السالك إلى ألفية ابن مالك " وقد خلا منهج السالك من الإفراط الممل وعلا عنى التفريط المخل وكان بين ذلك قوامًا" . ولم يأل جهداً فى تنقيحه وتهذيبه وتوضيحه وتقريبه .

وقد قامت على شرح الأشمونى عدة حواش منها : حاشية حسن ابن على المدابغى ٧٠٠هـ ، وحاشية أحمد بن عمر الأسقاطى ١١٥٩هـ وحاشية الحفنى ١١٧٦ هـ لكن أشهر من حاشية الصبان ١٢٠٦هـ وتوفى الاشمونى ٩٢٩هـ بعد أن جاوز التسعين رحمة الله عليه .

٢١- الصبان ١٢٠٦هـ :

هو أبو العرفان محمد بن على ولد بالقاهرة ونشأ فقيراً متواكلاً ولم يمنعه فقره من حفظ القرآن والمتون والاجتهاد فى طلب العلم .

فتتلمذ على حسن بن على المناطاوى الشافعى الأزهرى المشهور بالمدابغى ١١٧٠هـ ، ومحمد بن محمد بن محمد الحسنى التونسى المالكى المعروف بالبليدى ١١٧٦هـ ، وعطية الله بن عطية البرهانى الشافعى الأجهورى ١١٩٠هـ ، ومحمد بن عبادة بن برى العدوى ١١٩٣هـ .

وقد ألف فى مختلف العلوم لكن من أشهر مؤلفاته حاشيته على الأشمونى التى سارت بها الركبان فاحتفى بها العلماء وعلقوا عليها بالتقارير والحواشى كحاشية محمد بن محمد حسين الأنبابى ١٣١٣هـ ، وحاشية احمد بن محجوب ١٣٢٥هـ وقد رسم الصبان فى مقدمة حاشيته المنهج الذى سار عليه . وتوفى الصبان سنة ١٢٠٦هـ .

النحو عند عصر السيوطى :

بعد عصر السيوطى ظهرت كتب متنوعة فى النحو كان أغلبها شروحًا أو حواشى أو تعليقات على ما سبقها من مؤلفات .

وهناك طائفة أخرى من الكتب التى ألفت على نسق متدرج قريب المنال لسد حاجة تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية ، وأغلب هذه الكتب سار فى ترتيب المسائل النحوية مبتدئًا بالكلام عن الاسم فالفعل فالحرف، وما يتدرج تحت كل منها من أقسام ، ثم الكلام على بعض النواحى الصرفية كالتصغير والنسب والإعلال والإبدال .

هذه هى المادة العلمية التى تضمنتها الكتب النحوية فى مراحلها المختلفة سارت متدرجة فى نحوها واكتمالها ، وسلك العلماء فى ترتيبها طرقاً مختلفة .

ولكنها ترمى إلى غاية واحدة هى البحث فى الكلمة وأحوالها وأوضاعها وضبط آخرها ، وفى العوامل التى ينشأ عنها ذلك ، وفى صوغ الكلمات واشتقاقها ، أو فى الجملة وأنواعها .

وقد كانت كتب المتقدمين توضع متضمنة لما اهتدوا إليه من حقائق نحوية وصرفية دون التجاء إلى متن وشرح .

ومنهم من كان يلجأ إلى نظام الأمالى يضمنه أنواعًا كثيرة فى فنون اللغة والأدب .

وبعد أن اكتمل وضع علم النحو وتمت مسائله ، جاء فريق من العلماء فلم يجدوا موضعا للمزيد فاتجهوا إلى شرح كتب المتقدمين وتوضيح ما قد يصعب فهمه على من بعد العهد بينهم وبين العصور التى ألفت فيها هذه لكتب .

ثم جاء فريق آخر رأوا أن يتبعوا طريقة التدرج فى التأليف لكى يقربوا الحقائق إلى أذهان المتعلمين فى مراحلهم المختلفة وليسهلوا عليهم حفظها فألفوا المتون ، كما فعل ابن مالك فى ألفيته المشهورة المعروفة بالأحرومية وكما فعل كثير من العلماء فى القواعد النحوية وغيرها من فروع الثقافة العربية والإسلامية ، ولقد كان وضع الحقائق العلمية على هذه الصورة المنظومة مدعاة إلى غموضها والتواء عباراتها فى بعض الأحيان

وقد يكون إلى جانب ذلك بعد عن استيفاء الشروط والجزئيات التى ترتبط بالقاعدة أو يتطلبها إتمام البحث .

ولهذا لم يكن بد من وضع شروح لهذه المتون ، فقام بذلك فريق من العلماء ، وكان لهم فى النظام الذى وضعوه طريقتان :

إحداهما أن يكون الشرح مستقلاً عن المتن ، كما فى شـرح ابـن عقيل على ألفية ابن مالك .

والثانية أن يندمج الاثنان وتتكون منهما وعبارات متصلة متماسكة كما فى شرح الأشمونى على الألفية المذكورة .

وقد ذع هذا النظام وهو نظام المتون والشروح منذ عصر المماليك فى أواسط القرن السابع الهجرى ، ولا تزال الكتب التى ألفت علـى هـذه الطريقة مستعملة إلى الآن فى كثير من علوم العربية ، وفى القرن العاشر الهجرى ظهر نهج آخر فى التأليف وهو نظام الحواشى والتقارير .

أما الحواشى : فهو إيضاح لبعض عبارات الشروح ومسائلها يجلى ما فى عباراتها من غموض ، أو يكمل ما فيها من نقـص فـى الحقـائق والشروط التى لم يستوفها الشرح .

وأما التقارير : فهى تعليقات على الحواشى لابـداء ملاحظـات أو إتمام نقص ولدينا كثير من هذه الأنواع فى علم النحو .

ومنشأ الحواشى هو أن نظام التعليم كان أساسه تدريس كتـاب أو قراءته على حد تعبيرهم .

فكان النحوى يعالج المباحث التى يتضمنها المتن والشـرح ، فـإذا صادف غموضًا أو قصورًا أو نقصًا كتب على حاشية الكتاب ما يعالج ذلك

ثم يجئ من ينشرون الكتاب فيطبعونه مع الشرح ، وأحيانًا يجعلون الشرح على هامش الكتاب والحاشية فى الصلب ، وأحيانًا يكون العكس ، وذلك على حسب ما يقتضيه النظام الوضعى للكتاب ، فإذا تصدى أحد المدرسين لتدريس هذه المجموعة التى تتألف من متن وشرح وحاشية أضاف إليه ما يعن له من تقريرات تطبع مع هذه المجموعة فى بعض أطراف الكتاب أو فى ناحية بارزة منه على حسب مقدارها .

وقد يكون لهذا النظام فى التأليف بعض الفوائد من ناحية التدرج فى التحصيل العلمى ، فالمتعلم يدرس أولاً المتن ، ويتفهم ما تضمن من حقائق موجزة ، ثم ينتقل إلى الشرح وهو أوسع وأوفى ، ثم يرقى إلى الحاشية والتقريرات ليستوفى ما فيها من تمحيصات وزيادات ليست فى الشرح ، وإلى جانب هذا كان حفظ المتن عن ظهر قلب عونًا على الإلمام بالحقائق العلمية وسهولة استحضارها والإجابة عن دقائقها .

ولكن هذا النظام له عيوبه وصعوباته ، ذلك أن المتون فى معظم أوضاعها تجئ مكدسة المعانى مختزلة الألفاظ ، وبعضها نظم يشوبه فى الغالب قصور العبارة والتواؤها وغموضها .

وعلى ذلك يتشعب جهد المتعلم بين تحصيل الحقائق ، وتذليل ما فى المتن من غموض وصعاب ، وإتمام ما فيه من نقص .

ويرى فريق ممن يفضلون هذا النظام أن لهذه الطريقة غاية تعليمية هى شحذ الفكر وتكوين " ملكة الفهم " والمران على حل المعضلات اللفظية والجدل اللفظى .

ولكن المجال فسيح لتحقيق هذه الغاية فى ميدان الحقــائق العلميــة نفسها ، ولا سيما علم النحو فإنه حافل بكثير من وجــوه الخــلاف بــين البصريين والكوفيين وغيرهم ، وبآراء متعددة فى التأويــل وفــى العلــل النحوية .

أصول النحو

يعد السماع والقياس والإجماع واستصحاب الحال مجموعة من الأسس التي اعتمد عليها القدماء في معالجة المسائل النحوية وقد سيطرت تلك الأسس على تفكيرهم النحوي ؛ لأنها استطاعت توجيه عقولهم في الخلافات التي نشأت بينهم ، وفي تغليب رأي على آخر حين تعدد الآراء ، وبالإضافة إلى سيطرتها على الكثيرمن الأعمال النحوية بصورة واضحة ، تعد تلك الأسس : السماع ، والقياس ، والإجماع ، واستصحاب الحال المحور الذي دار حوله البحث المنهجي في أدلة النحو أو أصوله عند القدماء .

ولكن ما مفهوم أصول النحو عند القدماء :

يقول أبو البركات الأنباري ت ٥٧٧هـ : أصول النحو : أدلة النحو للتي تفرعت منها فروعه وفصوله ، كما أن أصول الفقه هي أدلة الفقه التي تنوعت عنها جملته وتفصيله .

ويقول السيوطي : ت ٩١١هـ : أصول النحو علم يبحث فيه عن أدلة النحو الإجمالية من حيث هي أدلته وكيفية الاستدلال بها وحال المستدل ، ونشير إلى أن تلك الأسس أو الأدلة التي أشرنا إليها كانت موجودة عند الأوئل من النحاة قبل إفرادها بالبحث والدرس ، أو قبل تدوينها في أعمال علمية مستقلة ، وكانوا يستخدمونها في التعرف على قواعد التركيب النحوي للجملة العربية ، فالقياس – مثلاً – استخدمه النحاة في توجيه الآراء وحسم الخلافات ، وتخريج الشواهد قبل أن يبحثوا في

تعريفاته وأركانه وطرق استخدامه ، لذلك نستطيع أن نقول إن علم النحو سابق فى النشأة والوجود على علم أصول النحو .

وقد اهتم القدماء بإفراد علم أصول النحو بالتأليف المستقل ، ووصل إلينا عدة مصادر تعد الأساس الذى يمكن فى ضوئه التعرف على ما يتصل بهذا العلم واستخراج أدلته وبيان مناهج البحث فيه وطريقة تطبيقه فى النصوص .

وإذا أردنا التعرف على التطور التاريخى للتأليف فى أصول النحو فإننا نجد أول كتاب يحمل عنوانه اسم "الأصول" من تأليف ابن السراج ت ٣١٦هـ ، ثم جاء ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢هـ ونظر فى أصول النحو وفى أصول ابن السراج وقال : وذلك أنا لم نر أحدًا من علماء البلدين – يقصد البصرة والكوفة – تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه . ثم وضع ابن جنى كتابه " الخصائص " الذى يعد البداية العلمية المنظمة للبحث فى علم أصول النحو ، وبيان أسسه المنهجية، وأصبح علم أصول النحو واضح الحدود والمعالم على يد أبى البركات الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧هـ وذلك فى كتابه " لمع الأدلة فى أصول النحو " وألف جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ ، كتابًا فى أصول النحو عنوانه : " الاقتراح فى علم أصول النحو " .

وبعض القدماء أفرد بعض أصول النحو بالتأليف ومن أشهر الكتب التى وصلت إلينا " الإيضاح فى علل النحو " تأليف أبي القاسم الزجاجى المتوفى سنة ٣٣٧هـ للهجرة .

وأدلة النحو أو أصوله عند ابن جنـــى ثلاثـــة هـــى : الســـماع – والإجماع – والقياس ٠ وهى ثلاثة أيضًا عند أبى البركات الأنبارى : النقل – والسماع والقياس – واستصحاب الحال . وهى أربعة عند الســـيوطى : السماع والإجماع ، والقياس ، واستصحاب الحال وينتج من هذا كله أربعة أدلة هى :

١- السماع ٢- الإجماع ٣- القياس

٤- استصحاب الحال .

القياس

القياس هو الأساس الذى تبنى عليه كل ما تستنبطه من قواعد فى اللغة أو صيغ فى كلماتها أو دلالات فى بعض ألفاظها ، فالقياس بمثابة المكيال أو الميزان الذى يبين الصحيح من الزائف وما يقبل وما يرفض، فعلماء القرن الثانى الهجرى بعد أن وردت لهم تلك الذخيرة اللغوية العظيمة ، وبعد أن ورثوا من الأساليب الأدبية القدر الكبير جعلوا كل هذا الذى جاءهم عن العرب الفصحاء أساسًا يبنون عليه ما قد يعن لهم ، أو نورًا يهتدون على ضوئه ؛ رغبة منهم فى الاحتفاظ للعربية بطابعها .

وليس القياس إلا استنباط مجهول من معلوم ، فإذا اشتق اللغوى صيغة من مادة من مواد اللغة على نسق صيغة مألوفة فى مادة أخرى ، سمى عمله هذا قياسًا .

فالقياس اللغوى هو مقارنة كلمات بكلمات أو صيغ بصيغ أو استعمال باستعمال ؛ رغبة فى التوسع اللغوى وحرصًا على اطراد الظواهر اللغوية ، وقد لجأ النحاة إلى القياس منذ وضعوا أسس علم النحو وبدأ التأليف فيه ، وعلى أن القياس فى نشأة النحو لم يكن له من الشأن ما كان فى عهد الصراع العلمى بين مدرستى البصرة والكوفة ، واقتصر البصريون على جواز القياس على المشهور الشائع ، وأبوا القياس على القليل أو النادر فى حين أن الكوفيين قد أجازوا القياس على الشاهد الواحد أو الشاهدين .

وقد كان لكل من المدرستين جولات وصولات فى هذا الشأن وذلك لأن البصريين قد ألفوا من أساليب اللغة قواعد عامة بنوها على أكثر الأساليب شيوعًا وألفة ، ثم التزموا هذه القواعد والأصول لا يتعدونها ولا يسمحون لغيرهم أن يجاوزوها فى شعر أو نثر .

أما الكوفيون فقد توسعوا فى القياس ، وأباحوا التسبح على القليل أو النادر روى أن أبا عمر بن العلاء سأله سائل قائلاً : خبرنى عما وضعت مما سميته عربية أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال لا .

قال فكيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهى حجة ؟

قال : أعمل على الأكثر وأسمى ما خالفنى لغات .

هذه الرواية تلخص لنا مذهب البصريين فى القياس وذلك أنهم بعد أن استقروا ما ورد لهم من نصوص اللغة اتخذوا مما كثر شيوعة وزادت نسبة وروده مقياسا يؤسسون عليه القاعدة ويستنبطون منه الصحيح المقبول، وتلك هى الطريقة العلمية الحديثة فى تقعيد القواعد واستخراج مسائل اللغة ، وكل ما يؤخذ على البصريين أنهم لم يحددوا نسبة المقيس عليه تحديدًا دقيقًا بل اختلفوا فيه بعض الاختلاف ، فما سماه أبو عمرو الأكثر سماه غيره بالكثير أو بالباب أو بالأصل وغير ذلك من مصطلحات وردت فى كتب البصريين من اللغويين ، وظهر أثر هذا الخلاف فى أن فريقًا منهم كانوا يعدون بعض المسائل قياسية ويعدها غيرهم سماعية : كالتعدية بالهمزة والتضعيف وبعض صيغ المشتقات ونحو هذا ، وذلك لأن فكرة الكثرة والشيوع لم تكن محددة النسبة فى أذهانهم تحديدًا واضحًا ، فإذا ظهر لأحد علمائهم أن ظاهرة ما قد ورد لها عن العرب قدر من الأمثلة أو

الشواهد وبدا له أن هذا القدر يكفى لاعتبار هذه الظاهرة قياسية نادى بقياستها ، على حين أن عالما آخر كان يرى هذا القدر غير كاف ويقول بسماعية تلك الظاهرة .

أما الكوفيون فقد أسسوا القياس على كل ما روى عن العرب مهما قلت شواهده . وقد يظن لأول وهلة أن فى نظرة الكوفيين تيسرًا علينا نحن المولدين ، وأن فى مسلكهم رخصة لنا تجيز كثيرًا من الأمور التى أباها البصريون ، غير أن الأخذ بمذهب الكوفيين قد يؤدى بنا فى آخر الأمر إلى نوع من الاضطراب والفوضى فى تقعيد القواعد وتنظيم مسائل اللغة . إذ يترتب عليه خلو اللغة من الاطراد والانسجام وهما شرط هام فى الفهم والإفهام ومقياس دقيق يقاس به ما بلغته كل لغة من نمو وتطور .

ويؤدى القياس دورًا مهما حين الكشف عن منهج الدرس النحوى عند علماء العربية بأنه من أسس المنهج النحوى ومن ركائزه الرئيسية ، وقد اهتم الخليل وسيبويه بالقياس ، ولكن الأساس عندهما هو كلام العرب الفصحاء الذين يعتد بهم بالإضافة إلى قياسهما تركيبا نحويا على آخر ومن أمثلة ذلك قياس سيبوية لحذف العائد فى باب النعت على حذفه فى باب الصلة ومن الشواهد قول الشاعر :

أبحث حمى تهامة بعد نجد ... وما شئ حميت بمستباح

فإن ما اسم موصول ، لذلك لابد من وجود جملة الصلة ، والعائد قد حذفه جرير ، والتقدير "حميته" ، وحمل سيبويه على هذا الحذف قول الحارث بن كلده :

فما أروى أغيرهم تناء ... وطول العهد أم مال أصابوا

فإن جملة " أصابوا " فى محل رفع صفة لـــ " مـــال " والعائـــد محذوف والتقدير " أم مال أصابوه "

أركان القياس :

القياس – كما عرفنا – حمل غير المسموع من الكلام على ما سمع من العرب ، وتعدية حكم الثانى إلى الأول ، ولوجــود صــفة ، أو ميــزة مشتركة من أجلها أعطى غير المسموع حكم الشيوع ، ويترتب على هــذا وجوب توافر أربعة أركان حتى تتحقق عملية القياس وهى :

أصل : وهو المقيس عليه .

فرع : وهو المقيس .

حكم : وهو ما يسرى على المقيس مما هو فى المقيس عليه .

وعلة جامعة : وهى ما قدره النحويون من أسباب استحق بموجبها المقيس حكم المقيس عليه .

وقد نبه العلماء إلى ضرورة وجود شرط فى كل ركن مــن هــذه الأركان الأربعة حتى تصح بها عملية القياس :

١– المقيس عليه : وهو الأصل ويعنون به شيئين .

أولهما : المادة اللغوية المنقولة عن العــرب بطريــق الســماع والروايــة بالمشافهة .

ثانيهما : القواعد النحوية التى صاغها النحاة من استقراء تلك المادة .

ولقد اقترف النحويون فى الأصل المقيس عليه وفى شروط الراوى وعدالته وصحة النص المروى ،وفصاحة المتكلم به ، فهم لم يقيسوا علـــى

كل مسموع من العرب ، لذا فقد جعلوا المسموع درجات منه ما يقاس عليه ومنه ما يحفظ .

وقد قسم العلماء المسموع عن العرب إلى مطرد وشاذ :

المطرد : وهو المقيس عليه ويعنون به الاطراد في القياس ، والسماع معاً ، فأما المطرد في القياس فهو أن يوافق المقيس عليه قاعدة أصلية كقاعدة رفع الفاعل ، أو فرعية كقواعد الإعلال والإبدال شريطة ألا يوجد ما يناقض هذه القواعد ، وأما المطرد سماعًا فهو ورود أمثلة كثيرة من كلام العرب للمقيس عليه توافقه بحيث لا يرى قليلاً أو نادرًا أو شاذًا وهذا ما ذكره ابن جني فيما نقله عن السيوطي بقوله : "جعل أهل العرب ما استمر من الكلام في الإعراب ، وغيره من مواضيع الصناعة مطردًا ، وجعلوا ما فارق عليه بقية بابه وانفرد عن ذلك إلى غيره شاذًا [1] .

وأما الشاذ فمعناه التفرق والتفرد ، وهو عند الكفوي : ما يكون بخلاف القياس من غير نظر إلى قلة وجوده وكثرته .

الأول : امتناع القياس على الشاذ في الاختيار ، وهذا المسموع الشاذ يتبع فيه السماع الوارد به ، ويحفظ من غير أن يعد أصلاً يقاس عليه غيره .

ويعد العلماء من الشاذ كل ما اطرد سماعًا ، ورواية ، ولكنه شذ في القياس فلا يبيحون القياس على هذا المسموع ، وإن لم يرد ما يخالفه لتعارضه مع القياس .

---

[1] السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها ١/٢٢٧

- ابن جني : الخصائص ١/٩٧

الثاني : إباحة القياس على الشاذ في الضرورة ، ويوضح هذا الموقف ما رواه ابن جني عن أستاذه أبي علي حين سأله عن جواز القياس على الضرائر المستحدثة التي لم يجوزها النحاة فقال : كما جاز أن منثورنا على منثورهم فكذلك يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم فما أجازته الضرورة لهم أجازته لنا ، وما حظرته عليهم حظرته علينا [1] .

---

[1] ابن جني : الخصائص ٣٢٣/١

المقيس

وهو الفرع ، ويعنون به ما كان محمولاً على كلام العرب وموجهاً على ما وجهت عليه العبارات الواردة عن العرب ، فإن لم يصح حملهـــا على كلام العرب فلا يجوز التكلم بها .

وكان شعارهم قول الخليل وسيبويه " ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم " واعتماداً على رأيهما يمكن أن يقاس كل ما نطق به العـــرب وإن لم يكن في كلام العرب فليس له معنى في كلامهم فكيف نجعل مثـــالا في كلام قول ليس له في أمثلتهم معنى[1].

وأوجب سيبويه أن يحمل المقيس على المقيس عليه معنى ولفظا لا معنى فقط كما يظهر من قوله : " وقالوا طلحت الناقــة " وناقــة طلـــيح " شبهوها بـــ " حسير " لأنها قريبة من معناها " [2] .

وذكر النحاة للمقيس أنواعًا كثيرة يمكن حصـــرها تحـــت صـــنفين رئيسين :

أولهما : نصوص محمولة على نصوص .

ثانيهما : أحكام محمولة على أحكام .

السماع

هو المصدر الأول الذى دون العلماء اللغة بموجبه وهو أصل مـــن أصول النحو ، ودليل من أدلته ،وقد أطلق عليه ابن الأنبارى النقل ، فقال :

---

[1] ابن جنى : لخصائص ٣٥٦/١

[2] سيبوية : الكتاب ٦٥٠/٣

أما النقل فالكلام العربى الفصيح المنقول النقل الصحيح الخارج عـــن حـــد القلة إلى حد الكثرة[1] .

[1] الإغراب فى جدل الأعراب ٤٥

نظرية النحو العربى

التأثير والتأثر بين أصول الفقه والنحو

نشأ اتصال علمى بين النحاة وعلماء أصول الفقه وكان من ثمار هذا الاتصال :

١- ظهور علم أصول النحو ، واشتراك أدلته مع أدلة أصول الفقه .

٢- استعانة علماء أصول الفقه بأبواب النحو فى استخراج الحكم الشرعى من النص .

٣- أخذ النحاة بعض أبواب أصول الفقه فى مؤلفاتهم ، وإمامهم فى هذا وكبيرهم الذى علمهم تلك الصناعة ابن جنى .

٤- وجود الكثير من أوجه التشابه فى " المنهج " عند علماء الأصول والنحاة .

٥- اشتغال بعض النحاة بعلم الأصول واشتغال بعض الأصوليين بعلم النحو والانتهاء بالجمع بينهما لإتقان الصناعة فى العلمين .

وكان القدماء حين يتحدثون عن العلوم من حيث النضوج والاحتراق يذكرون الفقه والنحو معاً يدلنا على ذلك قولهم : وكان بعض المشايخ يقول : العلوم ثلاثة : علم نضج وما احترق وهم علم النحو والأصول وعلم لا نضج ولا احترق وهو علم البيان والتفسير ، وعلم نضج واحترق وهو علم الفقه والحديث ، وحين أراد القدماء تمييز اللغوى من النحوى كانوا يقارنونهما بالمحدث والفقيه .

أثر النحاة فى أصول الفقه :-

عرف علماء أصول الفقه أهمية النحو والدور الذى يؤديه فى استخراج الحكم من النص وفى تفسير آى الذكر الحكيم ومعرفة بلاغته وإعجازه ، لذلك يرى الإمام الشافعى رضى الله عنه أن من تبحر فى النحو اهتدى إلى كل العلوم وأضاف قوله : " لا أسأل عن مسألة من مسائل الفقه إلا أجبت عنها من قواعد النحو" .

ويمكن بيان بعض التأثيرات التى أحدثها النحو فى أصول الفقه خلال النقاط الآتية:-

(١) ألف بعض العلماء كتبًا تهدف إلى تخريج الفروع الفقهية على الأصول النحوية ، ومن أولئك الإمام جمال الدين الإسنوى ٧٧٢هـ الذى ألف كتابًا عنوانه : " الكوكب الدرى فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية ".

وقد احتوى كتاب الإسنوى على الكثير من المسائل التى اختلط فيها النحو بالفقه وكان يقدم الأصل النحوى ثم يخرج عليه بعض الأحكام الفقهية .

(٢) يرى القدماء أن تحصيل الحكم من النص لا يمكن التوصل إليه إلا لمن تمرس بدراسة النحو وفهم معانى الألفاظ .

(٣) ولعل من المفيد الإشارة إلى أن النحاة كانوا يقولون إن أصول الفقه مرتبطة بمعرفة العربية لأنه يبتنى على معرفة الكتاب والسنة ولا يعرف معناهما إلا بمعرفة العربية ، ولذلك كان شرطًا فى صحة

الاجتهاد وكان النحاة يفخرون حين ترد أسماء الرواد الأوائل فى كتاب الأصول والتفاسير

يقول الزمخشرى :- " ويرون الكلام فـــى معظـــم أصــــول الفقــــه ومسائلها مبنيا على علم الإعراب والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائى والفراء وغيرهم من النحويين البصريين الكوفيين "[1]

وقد اطلع الفقهاء على كتب النحو خاصة كتاب سيبويه وكان أبـــو عمرو الجرمى يقول : " أنا مذ ثلاثون أفتى الناس فى الفقــــه مـــن كتـــاب سيبويه لأن الجرمى صاحب حديث فلما علم كتاب سيبويه تفقه فى الحديث إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش وكان الرجل ملازمًا للكتاب ونظر فى شواهد سيبويه لتوثيقها " .

ويقول ابن فارس إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق مـــن العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب حتى لاغناء بأحد مـــنهم عنـــه[2] وابـــن فارس أحد اللغويين الذين اشتغلوا بأصول الفقه .

٣) يؤدى الإعراب دورًا مهمًا فى استخراج الحكم الشرعى خاصة حـــين يتعدد الوجه الإعرابى لبعض الكلمات ، وكانت تجرى مناقشات بين النحاة وعلماء الأصول فى المجالس المختلفة ، وقد نجح النحاة فـــى اســـتخراج الحكم الفقهى إعتمادًا على محصولهم من قضايا النحو والصرف فقد قيـــل للفراء :-" ما تقول فى رجل سها فى الصلاة ثم سجد سجدتى السهو فسها فقال :- لا يجب عليه شئ ، وقيل له : وكيف ذلك ومن أين قلت ؟

---

(١) الزمخشرى : شرح المفصل : ١/١١

(٢) ابن فارس : الصاحبى فى فقه اللغة ص٣٠

قال : أخذته من كتاب التصغير لأن الاسم إذا صغر لا يصغر مرة أخرى ، ولتلك المسألة الفقهية رواية أخرى فقد قيل لأبى عمر الجرمى عما يقول فى رجل سها فى الصلاة فسجد سجدتى السهو فسها .

فقال : لا شئ عليه ، قالوا له : من أين قلت ذلك ؟ قال : أخذته من باب الترخيم لأن المرخم لا يرخم .

ونظر الفقهاء فى الأساليب النحوية وما تحتمله من التقدير الإعرابى وبنوا عليها بعض المسائل الفقهية ، وأخذ النحاة عنهم ذلك فلو أن إنسانا قال : أقسم أو أحلف أو أشهد ثم حنث وجبت عليه الكفارة لأنه يصرف إلى: أقسم بالله ونحوه إذا كان يلزم المسلم إذا حلف أن يحلف بالله .

وعلى الرغم من أن ابن حزم قد أخذ بالمذهب الظاهرى فى الفقه فإنه لجأ إلى التقدير فى بعض آى الذكر الحكيم لاستخراج الحكم الفقهى .

ومن أمثلة ذلك توقفه أمام قوله تعالى : " وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً " [1]

---

[1] المائدة : ٥

استعارة النحاة أبواباً من أصول الفقه

استعار بعض النحاة أبوابًا من علم أصول الفقه وعرضوا الموضوعات اللغوية والنحوية فى ضوئها ، وأخذوا بعض العناوين الموجودة عند الفقهاء ، ويأتى على رأس أولئك ابن جنى فى خصائصه لذى عقد باباً عنوانه " باب فى الاستحسان " وهو مستعار من مصطلحات أصول الفقه وقبل أن نعرض لما يقصده به نشير إلى أن الاستحسان أحد أدلة الأحكام الشرعية عند الحنفية ومن تعريفاته عند علماء الأصول هو أن يعدل المجتهد عن أن يحكم فى المسألة بمثل ما حكم به فى نظائرها لوجه أقوى يقتضى العدول عن الأول .

وجماع الاستحسان عند ابن جنى أن علته ضعيفة غير مستحكمة إلا أن فيه ضرباً من الاتساع والتصرف ، ومن أمثلته إلحاق نون التوكيد باسم الفاعل على نحو ما يحدث مع الفعل المضارع ومن شواهده : أقائلن احضروا الشهودا .

ألحق نون التوكيد باسم الفاعل " قائلة " تشبيهًا له بالفعل المضارع قال ابن جنى : " فهذا إذًا استحسان لا عن قوة علة ، و عن استمرار عادة ألا تراك لا تقول : " أقائمن يا زيدون ولا امنطلقن يا رجال .

ويستمر ابن جنى فى حشد الأمثلة الخاصة بالاستحسان حتى يصل إلى قوله فى آخر الباب : " ولا يقاس هذا ولا ما قبله ، لأنه لم تستحكم علته ، وإنما خرج تنبيهًا وتصرفًا واتساعًا[1] " .

---

[1] الخصائص ١/١٣٤-١٤٥

اتباع طرق الفقهاء فى ترتيب المادة النحوية

اتبع بعض النحاة طرق الفقهاء فى مؤلفاتهم ونصـــوا علـــى ذلـــك صراحة ويتضح هذا الاتباع فى ترتيب المادة النحوية وتصـــنيفها وتقســـيم الكتاب إلى الموضوعات المختلفة ومن أولئك ابن جنى الذى قال فى مقدمة الخصائص :

" وذلك أنا لم نر أحدًا من علماء البلدين " يقصد البصرة والكوفة " تعرض لعمل أصول النحو على مذاهب أصول الكلام والفقه " [١] .

واهتم أبو البركات الأنبارى بقضايا الخلاف النحوى بـــين علمـــاء البصرة والكوفة وجمع المسائل التى كانت مثار نقاش وجدل ورتبها علـــى ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعية وأبى حنيفة ليكون كتابه " الإنصـــاف فى مسائل الخلاف " أول كتاب صنف فى علم العربية على هذا الترتيب ، وألف على هذا الأسلوب ، لأنه ترتيب لم يصنف عليه أحد من السلف ولا ألف عليه أحد من الخلف .

وألف السيوطى كتابة " الأشباه والنظائر " قاصدًا أن يسلك بالعربية سبيل الفقه فيما صنفه المتأخرون وألفوه من كتب الأشباه والنظائر .

المصطلح بين النحو وأصول الفقه

هناك بعض المصطلحات المشتركة بين أصول الفقه والإعراب أحد فروع الدرس النحوى .

---

(١) الخصائص : ٢/١

ونود أن نشير إلى أن بعض الأعراب لم يكونــوا ليعرفــوا تلــك المصطلحات المتداولة على ألسنة النحاة وفى مؤلفاتهم لأن نطقهم للعربيــة مبنى على السليقة والفطرة التى جبلوا عليها وعرفوا بعض المصــطلحات بمعناها اللغوى لا بمعناها الاصطلاحى ، يــدل علــى ذلــك مــا يرويــه الأصمعى من أنه قال لأعرابى أتهمز إسرائيل ؟ فرد قائلا إنى إذا لرجــل سوء .

فقال الأصمعى : أفتجر فلسطين ، فــرد قــائلاً إنــى إذا لقــوى . الأعرابى لم يدرك من الهمز . إلا معناه اللغوى وهو ذكر العيب ، وقد برأ الأعرابى نفسه من هذه النقيصة ، لأنه ليس رجل سوء .

ولا يدرك أيضًا من الجر إلا معناه اللغوى وهو الجذب أو الشد فهو لا يستطيع جر فلسطين ، لأنه ليس رجلاً قويًا ، أما المعنيان الاصطلاحيان وهما وضع همزة تحت ألف إسرائيل ووضع كسرة تحت نون " فلسطين " وصرفها فلا يخطران على بال الأعرابى .

وليست مصطلحات النحو فقط هى التى كان يجهلها بعض الأعراب وإنما كانوا لا يدركون مصطلحات علم العروض ، وقد بذل ابن جنى جهدًا كبيرًا لكى يعرف أبا عبد الله الشجرى المقصود بـــ " الإقواء" فى الشعر :

وهناك بعض المصطلحات المشتركة بين النحو وأصول الفقه ، وقد أخذها النحاة من الأصوليين .

المصطلح الأول : " النسخ " :

معنى النسخ فى اللغة الإزالة قال تعالى : " ما ننسخ مــن آيــة أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها " والآية الثانية ناسخة والأولــى منســوخة،

والعرب تقول : نسخت الشمس الظل أى أزالته ، والمعنى أذهبت الظل وحلت محله ، ويقال نسخ الشيب الشباب .

والنسخ فى اصطلاح علماء الاصول هو رفع الشارع حكمًا شرعيًا بدليل شرعى وهو جائز عقلاً وواقع سمعًا فى شرائع ينسخ اللاحق منها السابق وفى شريعة واحدة ومثاله أن النبى صلى الله عليه وسلم : أقام يستقبل بيت المقدس فى مكة المكرمة وفى المدينة المنورة ثمانية عشر شهرا ثم نسخ ذلك بطلب التوجه إلى الكعبة المشرفة ، قال تعالى : " قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره " [1] .

والنواسخ جمع ناسخ وهى عبارة عن أفعال وحروف فالأفعال كان " وأخواتها والحروف " إن " وأخواتها ، و" لا " النافية للجنس والحروف التى تشبه ليس .

ورأى النحاة أن المبتدأ والخبر مرفوعان ، وأن دخول " كان " و إن " و "ظن" عليهما تغير من الرفع ، فأطلقوا عليها كلمة " النواسخ " وأطلقوا عليه اصطلاح "النسخ" على هذا العمل لما فيه من رفع حكم وإبدال آخر به .

المصطلح الثانى : التعليق :

وقد أخذه النحاة عن الفقهاء : فالمرأة المعلقة عندهم هى التى فقدت زوجها أو التى طلقها زوجها ولم تستوف بعد عدة النكاح فلا هى متزوجة ولا تستطيع أن تتزوج فى الوقت نفسه فهى معلقة .

---

(1) البقرة : ١٤٤

قال تعالى : " ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة " [1] هذا المعنى أخذه النحاة في باب أفعال القلوب " فكما أن الزوج يكون موجودًا إلا أن زوجته لا تتمتع بحقوق الزوجية ، كذلك العامل يكون موجودًا ولكنه لا يؤثر في المعمول ، إذ إن التعليق في هذا الباب هو إبطال عمل " ظن " وأخواتها في اللفظ دون التقدير لاعتراض ماله صدر الكلام بينها وبين معموليها نحو " علمت لزيد فاضل" فإن " زيد فاضل " حقه النصب ولكن العامل ملغى في اللفظ عامل في الحكم فهو عامل لا عامل فسمي معلقًا أخذًا من المرأة المعلقة التي لا هي متزوجة ولا مطلقة.

---

[1] النساء : ١٢٩

التأثير والتأثر بين علم الكلام والنحو

يعد الاحتكاك بين علماء النحو وأصول الفقه وعلـم الكـلام مـن الأمور الثانية في تاريخ الفكر الإسلامي ، وكان الإمام أبو حنيفـة يطلـق على علم الكلام اسم "الفقه الأكبر" ، وقد وجدت التأثيرات الكلامية طريقها إلى التفكير النحوي عند القدماء خاصة أوائـل الـذين اتبعـوا المـذهب الاعتزالي ، وقد استغل بعض علماء الكلام التأويل الإعرابـي والتقـدير النحوي في تأييد مذاهبهم الكلامية ومعتقداتهم الدينية .

يرى بعض علماء اللغة أن علل النحو أقرب إلى علـل المتكلمـين منها إلى الفقهاء ، ويساعد البحث في التأثير والتأثر بين النحو وعلم الكلام في التعرف على الإطار المنهجي للتفكير النحوي عند القدماء .

النظرية النحوية

المعاصرة

النظرية النحوية المعاصرة

أ – التاريخ والأعلام

اتصل علماء اللغة بعلم اللغة الحديث ومناهجه وقد بدأت هذه المحاولات على شكل إصلاح وتيسير في التأليف النحوي دون الاقتراب من الأصول النظرية والمنهجية . وكانت دروس النحو قد استقرت في الأزهر محصورة في إطار الشروح والمتون ، وكانت قيمة أي مؤلف في النحو تتركز في إحاطته واشتماله على كل تفاصيل الخلاف بين النحاة مثل حاشية الصبان على شرح الأشموني ، كما قام بعض علماء الأزهر بوضع شروح علمية مختصرة مثل الشيخ حسن العطار أستاذ رفاعة الطهطاوي كما تولى بعضهم أيضًا شرح شواهد ابن عقيل للجرجاوي وشرح شواهد شذور الذهب للفيومي .

وظل اهتمام علماء النحو في لأزهر محصورًا داخل هذه الدائرة ، ومع ذلك فقد جاءت المحاولة الأولى لعرض النحو العربي عرضًا حديثًا بعيدا عن هذه المتون والشروح على يد عالم من علماء الأزهر هو رفاعة الطهطاوي الذي ألف أول كتاب يعرض للنحو العربي عرضًا مختلفًا عن طريقة المتون والشروح ، وسمى كتابه هذا : "التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية" .

وقد ألف رفاعة هذا الكتاب فيما يبدو على نمط مؤلفات الفرنسيين في النحو التي أعجب بها أثناء بعثته إلى فرنسا فخرج فيه على طريقة معاصريه من علماء الأزهر في الشروح والحواشي والتعليقات والتقريرات

فجاء الكتاب بسيط العبارة سهل العرض ليس له متن أو شرح كما استخدم فيه لأول مرة الجداول الإيضاحية .

وبذلك بدأ رفاعة ما يسمى بحركة إصلاح الكتاب النحوى فى العصر الحديث ، والمقصود بها تخليص الكتب النحوية من العبارات الغامضة والاختلافات النحوية والشروح الجزئية ، وإعادة صياغتها بأسلوب سهل واضح بأمثلة من اللغة الحية المستعملة ، ولكن ذلك كله كان يتم فى إطار النظرية النحوية التقليدية لا يخرج عنها قيد أنملة . وألف هذا النوع من الكتب تبارا ظل متدفقًا حتى يومنا هذا ، فما زالت تظهر كتبه تحت أسماء وعناوين مختلفة مثل : النحو الواضح ، والنحو الوافى ، والنحو الوظيفى ، والتطبيق النحوى ، والنحو المصفى ، والنحو الميسر ... الخ . وتقدم هذه الكتب لطلاب المدارس والجامعات لغاية تعليمية خالصة ، وكلها لا تزيد على التغيير فى التبويب والأسلوب ، ولكنها لا تمس الجوهر أو تقترب منه .

ولكن حركة الإصلاح والتيسير لم تقف عند حدود الكتاب النحوى.

محاولة أ / إبراهيم مصطفى " إحياء النحو " :

أقام الأستاذ إبراهيم مصطفى محاولته فى إحياء النحو على أصليين هما :

(١) أن النحو هو قانون تأليف الكلام وليس دراسة أحوال أواخر الكلم إعرابا وبناء فحسب ، لأن تحديد النحو فى المفهوم الأخير تضييق شديد لدائرة البحث في النحو وتقصير لمداه وحصر له في جزء يسير مما ينبغي أن يتناوله ، ولهذا يطالب بدرس واف لأحكام نظم الكلام

وأسرار تأليف العبارات بما لها من صلة بالمعنى ، كما يطالب بوجه خاص بدراسة طرق الإثبات والنفى والزمن والتقديم والتأخير .

(٢) استبعاد الفلسفة الكلامية كما تتمثل فى نظرية العامل وما يترتب عليها من اختلاف العوامل والمعمولات مما أدى إلى التوغل فى التعليل على حساب المعنى وبناء على هذين الأصلين أخذ يعيد تصنيف ابواب النحو وفق المبادئ الآتية:

١- ليست حركات الإعراب حكمًا لفظيًا وأثرًا يجلبه العامل فحسب وإنما هى دوال على المعانى .

٢- للإعراب فى العربية علمين هما الضمة والكسرة ، وأما الضمة فهى علم الإسناد ودليل أن الكلمة مرفوعة يراد أن يسند إليها ويتحدث عنها ، وأما الكسرة فإنها علم الإضافة وإشارة إلى ارتباط الكلمة بما قبلها ، وأما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دالة على شئ بل هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب التى يراد أن تنتهى بها الكلمة نظير السكون فى اللغة العامية .

فالإعراب إذن للضمة والكسرة وليست بقية من مقطع بل هما من عمل المتكلم ليدل بهما على معنى فى تأليف الجملة ونظم الكلام .

وقد ترتب على هذا أن جمع فى باب واحد ما فرقه النحاة فى أبواب متعددة وانتهى إلى أن المبتدأ و الفاعل ونائب الفاعل باب واحد لأن كلا منهما مسند إليه .

(٣) لا توجد علامات أصلية وعلامات فرعية للإعرب فــلا حاجــة إلــى أبواب فرض لها النحاة استقلالاً نتيجة لذلك حيث وضعوا بابًا للأسماء الستة وبابا لجمع المذكر و بابًا لجمع المؤنث و بابًا لما لا يتصرف .

والرأى عنده أن الأسماء الستة وجمع المــذكر الســالم لا تعــرب بالحروف وإنما تعرب بحركات طويلة تكتب على صورة الحرف ، كمــا رأى أن جمع المؤنث السالم وما لا يتصرف يجريان علــى الأصــل فــى الإعراب ، ولكنهم أغفلوا النصب فى الأول حملاً على جمع المذكر السالم الذى أغفلوا فيه الفتح وأغفلوا إعراب الثانى بالكسرة حتى لا يخــتلط فــى حالة الكسر بالمضاف إلى ياء المتكلم إذا حذفت ياؤه وحذفها كثير فى لغة العرب .

(٤) التوابع عنده هى النعت والبدل لا غير ، ويدخل فى النعت خبر المبتدأ لأن الخبر تابع لمبتدأ كما تتبع الصفة الموصوف ، أما النعت الســببى فالأصل فيه أن يكون مبتدأ ولكنه جرى نعتًا من قبيل الاتبــاع علــى المجاورة كالاتباع فى قراءة بعضهم " الحمد لله " بكسر الدال اتباعًــا لكسرة اللام وكالاتباع فى قولهم " هذا حجر ضب خرب " بكسر رب اتباعا لكسر ضب لوقوعه فى جواره .

ويدخل فى البدل عنده التوكيد وعطف البيان ، أما العطف فلــيس نوعا من التوابع لأن إعراب المعطوف هو الأصل لا على الاتباع ، ومــن ثم فإن العطف يشارك المعطوف عليه فى الحكم ولذا يستحق أن يشــاركه فى الإعراب .

(٥) التنوين علامة التنكير وغيابه علامة التعريف ، فإذا عددنا المعارف لم تجد التنوين يدخل واحدًا منها إلا العلم وإن كان الأصل فيه ألا ينون وإنما يلحقه التنوين إذا كان فيه معنى التنكير وأريد الإشارة إليه ، وبناء على ذلك فلا محل لما لا ينصرف الذى قدمه النحاة من البحث فى العلل الموجبة عدم الصرف .

وهذه هى الأصول والمبادئ التى أقام عليها الأستاذ إبراهيم مصطفى رحمة الله إحياء النحو ، وربما كان إحياؤه بمعنى من المعانى من حيث طرحه لفضيلة اللغة والنحو ، والدعوة إلى البحث فيها بعيدا عن الفلسفة والعلل المنطقية وكذا من حيث اكتشاف أوجه القصور فى النظرية اللغوية التقليدية التى اكتسبت هيبة واحتراما بمرور الزمن ، ولكن هذا الإحياء رغم هذه الدعوة الواضحة إلى إعادة النظر فى درس العربية انتهى إلى الإبقاء على الجانب التعليمى وحده ومنهج البحث فى الفقه وهذا كله لا يدخل فى باب التجديد الذى يقوم على أصول جديدة ومنهج جديد ونظرية جديدة ، وهو ما لم يغب عن د/ طه حسين فى تقديمه للكتاب .

والذى لا شك فيه أن صاحب إحياء النحو قد استفاد كثيرا من آراء الفراء وابن مضاء القرطبى فيما ذهب إليه من حمل المبنى على المعنى أو إلغاء نظرية العامل ، بل لقد استفاد من آراء غيرهما من النحاة حتى فى قوله بدلالة الحركات على المعانى ، فهو رأى قديم أشار إليه أكثر النحاة عندما قالوا أن الرفع علامة الفاعلية أو العمدية .

وأن النصب علامة المفعولية أو الفضلات ، والجر علامة الإضافة، بل إن قوله إن الفتحة هى الحركة المستحبة عند العرب وليست علامة

إعراب يتعارض مع فكرته الأساسية التى أقـــام عليهـــا كتابـــه وهـــي أن علامات الإعراب دوال على المعانى ، وكون الفتحة حركة مستحبة لا ينفى عنها الدلالة ، فضلاً عن أن المستحب وغير المستحب – لا يثبـــت أمـــام النظر العلمى فليس فى النظام اللغوى ما يستحب وما يكره ، ولو كان ذلك صحيحا فلماذا وفق العرب بالسكون على الكلمات التى تنتهى بالفتحة وكان أولى بهم أن يلتزموا بها استمتاعا بما يحبون ولعلة أقرب إلى الموضوعية ما قاله القدماء من أن النصب علامة على التكملة أو الفضلة . بل لعل أهم من ذلك كله أن ننظر إلى إحياء النحو من منظور لم يلتفت إليه أحد مـــن الذين نقدوه عند ظهوره أو بعد ظهوره بسنوات ، وهو مدى مـــا اســـتفاد المؤلف من مناهج البحث اللغوى الحديث التى سمعها فى الجامعة المصرية القديمة والجديدة من المصريين والمستشرقين ، وكان النحو كما يقول طـــه حسين فى مقدمة الكتاب من أشد الموضوعات خطراً وأكثرها جريانا بمـــا بينه وبين المؤلف حتى أنهما ضاقا بأصوله القديمة منذ عهد الأزهر وأخذ ينكران هذه الاصول أيام الجامعة القديمة كما أخذا يلتمسان له أصولا جديدة منذ أن التقيا فى الجامعة الجديدة .

لم تؤثر فى عملهم إلا قليل ولعل السبب فى ذلك هو شدة ارتبـــاط أغلب دعاة الأحياء بالتقاليد اللغوية القديمة كما عرفوها وتعلموها سواء فى الأزهر أم دار العلوم ، حتى أنهم كانوا وهم فى أشد مواقفهم نقـــدًا للقـــديم مرتبطين بأصوله ومبادئه ولم يفكروا فى وضع غيرها أو استبدالها علـــى هدى مما يسمعون أو يقرأون من مناهج جديدة فى دراسة اللغة .

وقد بدأت أولى محاولات الإحياء هذه بظهور كتاب " إحياء النحو " للأستاذ إبراهيم مصطفى عام ١٩٣٧ الذى حرك قضية إصلاح النحو وتيسيره بشدة فتوالت من بعده عدة محاولات أخرى من أهمها وزارة المعارف ١٣٣٨م ، ويعقوب عبد النبى (٤١-١٩٤٥) ، وأمين الخولى ١٩٤٣ ، شوقى ضيف ١٩٤٧ ، وعبد المتعال الصعيدى ١٩٤٧ ، ومحمد احمد برانق ١٩٥٨ ، ود. مهدى مخزومى ١٩٦٦م ، د/ محمد كامل حسين ١٩٧٢ ، وآخر هذه المحاولات كان الدكتور / شوقى ضيف ١٩٨٢م .

بل اتصلت بها وواكبتها حركة أخرى نادت بإحياء النحو عن طريق إعادة النظر فى أصوله ومبادئه ، ظهرت آثار هذه الحركة فى صورة مؤلفات نحوية تختلف عن حركة إصلاح الكتاب النحوي فى ظاهرها ودعواها لا غير ، ولكنها فى مجموعها تعكس إدراكا حقيقيا لوظيفة فى الاتصال والتعبير . ومن ثم كانت حركة إحياء وبعث للجانب الحى الذى ينبغى أن يستعمل من قواعد النحو ، ولكنها رغم ذلك لم تكن معارضة للنظرية النحوية التقليدية وإنما كانت وثيقة الاتصال بأصولها ومبادئها ، رغم أن بعض دعائها أدعى التجديد ، ولم يتمسك بمبدأ الإحياء الذى كان أكثر دقة ودلالة على ما يفعلون .

وكان كلا الاتجاهين – أعنى تجديد الكتاب النحوى وإحياء النحو– بعيدين كل البعد عن علم اللغة الحديث ومناهجه ، رغم أن بعض أصحاب دعوى الإحياء التجديد كانوا يعملون فى الجامعة ، وقد ترامت إلى أسمائهم بلا شك أصداء عن علم اللغة التاريخى المقارن ، بل ربما أيضًا أصداء عن علم اللغة الوصفى إذ كانت الجامعة قد بدأت فى استدعاء بعض

المستشرقين الذين أخذوا فى تدريس العربية ودراستها وفق هذين المنهجين إلا أن هذه المناهج العلمية الحديثة ، والتى لم تعرفها العربية من قبل .

٢- محاولة د. مهدى المخزومى :

تتمثل هذه المحاولة فى كتابين أخرجهما الواحد تلو الآخر .

أما الكتاب الأول فهو بعنوان " فى النحو العربى نقد وتوجيه " ١٩٦٤ ، وأما الكتاب الثانى فبعنوان " فى النحو العربى قواعد وتطبيق على المنهج العلمى الحديث " ١٩٦٦ .

والكتاب الأول يمثل الأصول النظرية ، والكتاب الثانى يمثل التطبيق على هذه الأصول ، والذى يهمنا فى الكتابين معا هو " المنهج العلمى الحديث " الذى حرص المؤلف على أن يشير إليه فى صدر الكتاب الثانى ، أى أن الكتاب يحتوى على المبادئ النظرية لهذا المنهج العلمى الحديث ، حيث تجد فى مدخل الكتاب ما يشير إلى بعض جوانب هذا المنهج والتى تتمثل فيما يلى :

١- ليس من وظيفة النحو لذى يريد أن يعالج نحو لغة من اللغات أن يفرض على المتكلمين قاعدة أو يخطئ لهم أسلوبًا .
٢- النحو دراسة وصفية تطبيقية .
٣- النحو عارضة لغوية تخضع لما تخضع له اللغة من عوامل الحياة والتطور .
٤- النحو متطور أبدا لأن اللغة متطورة أبداً .
٥- النحوى الحق هو الذى يجرى وراء اللغة ويتبع مسيرتها .

٦- وظيفة النحوى أن يسجل لنا ملاحظاته ونتائج اختياراته فـــى صـــورة أصول وقواعد تمليها عليه طبيعة اللغة .

٧- النحو يستند إلى استقراء واع .

٨- ليس للنحوى أن يفلسف و يبنى على حكم من أحكام العقل .

٩- اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما يخضع له المجتمع .

وهى مبادئ تصل فى كثير من جوانبها بالدراسة الوصفية للغـــة ، بل هى أهم مبادئ الدراسة الوصفية وأبعدها أثراً فى توجيه دراسة اللغـــة حديثًا ، وبناء على هذه المبادئ يحكم على التراث اللغوى العربى ودراسة اللغة العربية قديما بأنها تدرس إلى اليوم على تلك الأســـس التـــى اجتهـــد القدماء فى بنائها وفى مقدمتهم الفراهيدى والفراء ، ولم يضف إليها جديدًا سوى مناقشات مدرسية لا يستفاد منها فى المباحث اللغوية الجديدة.

ومع ذلك فهو لا يقبل المفهوم الشامل للنحو كما كان عند الخليـــل والفراء . ويرى أن ما جاء به الخليل والفراء ليس من النحو الخــــالص ، وإنما كان درسًا شاملاً لفروع الدراسة النحوية واللغوية ، وكذلك لم يكـــن كتاب سيبويه عنده كتابا فى النحو الخالص ولكنه كـــان يتنـــاول بالـــدرس مسائل لغوية وصرفية بالإضافة إلى مسائل النحو .

من ثم فهو يشعر بحاجة العربية الماسة إلى نحو جديد بدلاً من هذه الدراسة الشاملة التى قام بها الخليل والفراء يقول :

لقد أصبحت الحاجة ماسة إلى نحو جديد يخلو ما علـــق بـــه فـــى تاريخه الويل من شوائب ليست منه ، مدروس وفق منهج يلائمه ، مبـــرأ

من هذه التعليلات الفلسفية التى اصطنعها القوم والتى أتت على حيوية هذا الدرس اللغوى[1] .

فما هو هذا النهج الذى أصبحت الحاجة ماسة إليه ؟

يقول : أصبحت الحاجة ماسة إلى تفريق الموضوعات التى تناولها الخليل والفراء ومن عاصرهما مختلطة متشابكة .. وأن ينبرى لكل موضوع دارسون متخصصون يناول كل فريق منهم موضوعه بإحاطة وعمق ، ولكى يتعاون الدارسون جميعًا فى تقديم ما يحصلون عليه ليتم للدارسين بحث لغوى ناضج .

وعلى الرغم من هذه الرؤية الواضحة للصلة بين فروع الدراسة اللغوية وعلاقاتها المتشابكة والتى تتناقض مع رفضة السابق لفكرة الدراسة اللغوية الشاملة .

غير أن هذا الاضطراب بين الوصفية والقواعد المعيارية لا يحول دون إدركه لمستويات التحليل اللغوى التى يحددها فى ثلاث مستويات :

١- الدراسة الصوتية هى الدراسة اللغوية الأولى التى يعنى بها اللغويون، وموضوعها هو الصوت اللغوى من حيث مخرجه وصفته وامتزاجه بغيره من الأصوات ، وبها يعرف الدارس كثيرًا من الظواهر اللغوية التى تدرس فى كتب النحو من إبدال وإعلال وإدغام إلى غيرها من ظواهر لغوية لا تفهم فهمًا مستوعبًا إلا إذا أخذت الدراسة الصوتية لها مكانا فى درس العربية .

---

[1] د. مهدى المخزومى فى النحو العربى ص٢٧

٢- موضوع الدرس الصرفى هو الكلمة المفردة من حيث بنيتها ووزنها واشتقاقها وتجردها وزيادتها ، وهو يلى الدراسة الصوتية ويترتب عليها طبيعة .
٣- موضوع الدرس النحوى هو الكلمة مؤلفة مع غيرها ، أو هو الجملة ، وتدرس فيه من حيث نوعها وما يطرأ على أركانها من تقديم وتأخير وذكر وحذف استفهام ونفى توكيد وكل هذا يرتبط بموضوع الدرس النحوى .
٤- أما المستوى الدلالى فلا يحدد موضوعه أو يشير إليه ، وإنما يرى أن علماء المعانى هم الذين استأثروا بالدرس النحوى الحق ، بل هم النحاة الحقيقيون الذين دفعوا بالدرس النحوى إلى الأمام ، وقدموا لدارسين نتائج طيبة خليقة بأن يستفاد منها .

هذا هو المفهوم النظرى للمنهج العلمى الحديث فى دراسة اللغة عند الدكتور مهدى المخزومى ، وهو مفهوم إذا نظرنا إليه بصورة عامة وجدناه يقترب إلى حد ما من تصور علماء اللغة المحدثين للدراسة العلمية للغة ، وخاصة فيما يتعلق بطبيعة العلاقات بين مستويات التحليل اللغوى وتداخلها ، وكذا طبيعة كل مستوى منها وموضوعه ، وذلك بغض النظر عن إغفاله للمستوى الدلالى وإشارته الغامضة إلى علم المعانى مما يدل على أن الدكتور المخزومى قد اطلع بصورة أو بأخرى على الفكر اللغوى الحديث لأن علماء العربية القدماء رغم درسهم للجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية لم يكن لديهم هذا التصور الواضح لمنهج

الدراسة اللغوية ، كما يشير إليه الدكتور المخزومى علـــى الأقـــل علـــى المستوى النظرى .

غير أن المنهج العلمى الحديث الذى أشار إليه الدكتور المخزومـــى يرى أن النحو يتصل بالمفهوم الأول ، أى بالمعنى التجريدى الوصفى دون الجانب التطبيقى الذى حرص المؤلف على أن يقرنه دائمًا بالنحو ، ومعنى هذا أن مفهوم النحو عنده لا يختلف عن مفهوم القدماء ، رغم أن علم اللغة الحديث يفرق بينهما تفريقًا واضحًا ، وهو ينتقد فى نفس الوقت هذا المفهوم الشامل عند القدماء ، ويعزوه لجهل القوم بموضوع دراستهم .

ويعرف د.مهدى المخزومى الجملة تعريفا مجردا فى أى لغة مـــن اللغات بعدة تعريفات :

١- الجملة هى الصورة الصغرى للكلام المفيد .

٢- هى المركب الذى يبين المتكلم به أن صورة ذهنية كانت قـــد تألفـــت أجزؤها فى ذهنه .

٣- الوسيلة التى تنقل ما جال فى ذهن المتكلم إلى ذهن السامع .

٤- الجملة هى الوحدة الكلامية الصغرى .

ويبدو أنه يفرق بين مفهوم الجملة ومفهوم الجملة التامة لأنه خلال هذه التعريفات يحدد ما يسميه بالجملة التامة بأنها تلك التى تعبر عن أبسط الصور الذهنية التامة التى يصح السكوت عليها ، ويرى أنها تتـــألف مـــن ثلاثة عناصر رئيسية هى :

١- المسند إليه أو المتحدث عنه و المبنى عليه .

٢- المسند الذى يبنى عليه المسند إليه ، ويتحدث به عنه .

٣- الإسناد ، أو ارتباط المسند بالمسند إليه .

ونجد عند الدكتور / مهدى المخزومى عدة معايير اختلط بعضها ببعض تتصل أحيانًا بطول الجملة وقصرها وأحيانًا تتصل بدلالة الجملة على المعنى التام الذى يحسن السكوت عليه ، أو هى الصورة الذهنية وأحيانًا أخرى تتصل بالتركيب وعناصره ووحداته مثل المسند والمسند إليه والإسناد ولكن القاسم المشترك الذى يجمع بين هذه المعايير جميعا هو أنها ليست معايير لغوية وإنما هى معايير فلسفية ومنطقية تستخدم ألفاظا ليست من ألفاظ النحويين ولا أوضاعهم كما يقول الزجاجى .

فالمعنى التام أو الكلام المفيد شئ خارج عن اللغة يقرره العقل والمنطق لأن المعنى المفيد هو علاقة ذهنية تربط بين صوت معين أو مجموعة من الأصوات وشئ خارج عن اللغة ماديًا كان أو معنويًا ، أو هو تصور ذهنى لا يتصل باللغة إلا كما يتصل الرمز بالمرموز إليه .

أما المعيار الثانى الذى يستند إليه فى تحديد الجملة فهو معيار الطول والقصر أى التركيب الطولى أو الأفقى لجملة ، فيرى أن الجملة هى الوحدة الكلامية الصغرى أو هى أقل قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلا .

وأما المعيار الثالث الذى يستخدمه د. المخزومى فى تحديد الجملة فهو التركيب الذى يتألف من مسند ومسند إليه وعلاقة الإسناد ، وهو معيار أيضا لا يتصل باللغة وإنما يتصل بفكرة الإسناد وأركانه أى بالتحديد المنطقى للجملة كما يتصل أيضا بالدراسة النحوية التقليدية .

٣-محاولة د. شوقى ضيف " تجديد النحو العربى "

كان للدكتور شوقى ضيف دعوة ورأى عن حاجة النحو العربى إلى تصنيف جديد بناء على نظرية ابن مضاء القرطبى عندما قام بنشر كتاب الرد على النحاة لأول مرة ١٩٤٧م حيث قدم الأصول والمبادئ التى ينبغى إعادة تصنيف النحو العربى على أساسها،وهى عنده تتمثل فى أمرين هما :

١- الاستغناء عن نظرية العامل .

٢- منع التأويل والتقدير .

ولم يقحم د. شوقى ضيف نفسه فى دعوى تطبيق المنهج العلمى الحديث فى دراسة اللغة ، وإنما حدد عمله فى إطار النظرية النحوية التقليدية ولكن مع إعادة تنسيق وتصنيف أبواب النحو وهو يعتمد فى إعادة التنسيق والتصنيف على الأسس التالية :

١- إلغاء الإعراب التقديرى فى المفردات مقصورة ومنقوصة ومضافة إلى ياء المتكلم ، ومبنية .

٢- عدم إعراب كلمة لا يؤدى إعرابها إلى فائدة فى صحة نطقها .

٣- وضع تعريفات وضوابط دقيقة لأبواب المفعول المطلق ، والمفعول معه والحال تجمع صور التعبير فى كل منها جمعًا وافيًا .

٤- حذف زوائد كثيرة فى أبواب نحوية تعرض دون حاجة إليها .

٥- زيادة إضافات لأبواب ضرورية كانت إضافات فرعية لتمثل الصياغة العربية وأوضاعها تمثيلاً دقيقاً .

وبناء على ذلك يقسم الكتاب إلى ستة أقسام ، قسمان للصرف ن وأربعة أقسام للنحو ، وقد بدأ القسم الأول من الصرف بدراسة لأصوات

اللغة العربية فيما أسماه نطق الكلمة التى يحدد أقسامها كما حددها القــدماء إلى اسم وفعل وحرف ، ويعتمد على لمعيار الدلالى فى تحديد أقسام الكلام ثم ينتقل إلى أصوات العربية غير أنه لا يستعمل مصطلح الصوت مطلقا .

وإنما يستعمل مصطلح الحرف للدلالة على الصوت وهو مصطلح تقليدى أدى إلى كثير من اللبس ، وقد أتخذ من الدراسة الصوتية عند علماء التجويد أساسًا لعرض وتصنيف أصوات اللغة العربية .

ثم يضيف الصوامت العربية مقتفيا تصنيف القــدماء مــن حيــث موضع النطق وصفته ، والصوائت تنقسم عنده إلى الحركات ويضيف إليها التشديد والتنوين ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى همزتى القطع والوصل ثم الإدغام فالإبدال .

وبذلك تنتهى دراسة الأصوات عنده وهى دراسة كافية للتدليل على أن تجديد الدكتور شوقى ضيف يتم فى إطار وصف القدماء لقواعد اللغــة العربية غير أننا نلحظ أنه قد خالف القدماء فى وضع الدراســة الصــوتية والصرفية فى مقدمة الدراسة النحوية ، فى حين أن القدماء كانوا يضعونها بعد الدراسة النحوية أو فى مقدمة الدراسة الصرفية ، كما استخدم الجداول فى بيان تصريف الأفعال بأنواعها المختلفة مع الضمائر . وإذا كان رفاعة الطهطاوى هو أول من استخدم الجداول الإيضاحية فى كتب النحو العربى فإن وضع الدراسة الصوتية قبل الدراسة النحوية هو أثر من آثار الاطلاع على الدراسات اللغوية الحديثة التى لا نجد لها أثراً يذكر فى كتاب تجديــد النحو .

فالمصطلحات تقليدية والتقسيمات كما هى عند البصريين وصـــور الإعراب النحوية بقيت كما هى إلا من بعض تعديلات تم فيها إدماج بعض الأبواب في بعض ، وفيما عدا ذلك لا نجد تجديداً يقوم على نظرية جديدة أو منهج يخالف منهج القدماء .

التجديد والتيسير والإصلاح مصطلحات أطلقت منذ العقد الثالث من هذا القرن ويقصد بها أمران هما :

١- من الناحية النظرية إعادة النظر فى وصف القدماء للنظام النحوى للغة العربية دون بقية النظم اللغوية الأخرى الصوتية والصرفية والدلالية .

٢- من الناحية العملية إعادة تصنيف القواعد النحوية فى إطـــار وصـــف القدماء لها وبمصطلحاتهم وتقسيماتهم .

ولم يدع أحد ممن تصدوا لهذا العمل تطبيق منهج علم اللغة الحديث يستوى فى ذلك رائد حركة التيسير والإصلاح الأستاذ إبراهيم مصـــطفى رحمة الله عليه ، وآخر ممثليها د. شوقى ضيف .

كما أن معظم جهود حركة التيسير والإصلاح انصبت على الجانب التعليمى العملى دون الجانب المنهجى النظرى ، فلم يفكر واحد منهم فـــى استبدال النموذج القديم بنموذج جديد يقوم على ستقراء جديد للغة العربيـــة المعاصرة ، حتى عندما قالوا بإلغاء نظرية العامل وهى أصل من أصـــول القدماء استندوا فى ذلك إلى دعوة ابن مضاء القرطبى ولكن كان ذلك أيضًا على مستوى النظر دون التطبيق ، حيث تعاملوا جميعًا مع آثـــار نظريـــة العامل وهم فى الوقت نفسه يرفضونها فقد أجمعوا مثلاً على أن الأفعـــال تنقسم إلى لازم ومتعد وهذا التقسيم للأفعال يقوم على النظر إلى الأفعـــال

من حيث هى عوامل تتعدى إلى معمولات . ومثل ذلك أيضا فى تعـاملهم مع حركات الإعراب التى حاولوا أن يلتمسوا لها تفسيرا غير التفسير الذى قدمه القدماء من أنها أثر يجليه العامل فسلموا بوجودها ولكـنهم حـاولوا البحث عن دلالة لها . ومثل ذلك أيضا فى استخدام المصطلحات النحويـة الصرفية بل إنهم عندما حاولوا أن يتعاملوا مع علم الأصوات وهـو مـن العلوم التى شاعت فى محاضرات المستشرقين وغيـرهم فـى الجامعـة المصرية القديمة والجديدة لم يستفيدوا شيئا من مفاهيم هذا العلـم الحـديث وحصروا أنفسهم فى نطاق تصنيف القدماء للأصوات العربية بكل ما فيها من غموض أحيانًا وبعض الأخطاء أحيانًا أخرى .

وقد نشأ داخل هذه الحركة تيار النظر إلى اللغة العربية وعلاقتهـا بالحضارة الحديثة والتقدم ويتمثل هذا التيار فى الدعوة إلى تطوير اللغـة الفصحى أحيانا ، أو اصطناع العامية بدلا منها أحيانا أخرى .

ويمثل هذا التيار سلامة موسى والدكتور محمد كامل حسين ، أمـا الأول فكان من دعاة العامية الذين دعوا إلى إحلالها محل الفصـحى ، أو إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية فى الكتابة وهـي دعـوة سبقت إليها عدد من العرب وبعض الأوربيين الذين لا ترتفع دعوتهم إلـى ذلك عن مستوى الشبهات .

ولكن الضمير القومي والدينى رفض التخلى عن الفصحى وتصدى لهذه الدعوة المشبهوة .

أما الدكتور محمد كامل حسين فقد حاول أن يغير مـن النمـوذج النحوى التقليدى بناء على الاستعمال اللغوى والمسـتويات المعاصـرة ،

وذلك فى كتابه اللغة العربية المعاصرة ١٩٧٦ ، وهو يقسم فى هذا الكتاب مستويات العربية إلى ثلاث مستويات هى :

١- الفصحى العالية : وهى لغة الأدب الرفيع والخطب والمواعظ والحكم .

٢- الفصحى المخففة : وهى اللغة الشائعة بين المثقفين والمتعلمين .

٣- العامية المنقحة : وهى تقوم على إحلال وتغيير بعض الأصوات والمفردات وطرق النفى والاستفهام الفصيحة محل ما يقوم مقامها فى العامية .

٤- العامية الخالصة[1] .

وهو يرى أن الفصحى المخففة هى الجديرة بالدراسة دون الفصحى العالية ، ويتنبأ بأن هذه الفصحى المخففة سيكتب لها الذيوع والانتشار وهكذا نسمع لأول مرة فى تاريخ الفكر اللغوى العربى من يدعو إلى وضع نموذج جديد للغة العربية طبقًا لمستوى لغوى غير المستوى الذى حدده القدماء ، وهو ينطلق فى هذه الدعوة من الواقع اللغوى ويرى أن تجاهل هذا الواقع عيب من عيوب التفكير اللغوى العربى .

وأن القواعد اللغوية التى وضعها القدماء ليست متساوية فى أقدارها ووجوب اتباعها ، فهى على أنواع مختلفة بالنسبة للاستعمال اللغوى المعاصر ، فمنها ما يجب المحافظة عليه ، ومنها ما يحسن اتباعه ، ومنها ما يمكن التساهل فى تطبيقه ، ومنها ما لا يقيد الكاتب أو القارئ ، ومنها ما هو مفتعل افتعالاً ولا أصل له فى مادة اللغة ، ومنها ما يجب نبذه .

---

[1] د. محمد كامل حسين ، اللغة العربية المعاصرة ص ٧٠-٨٣

وهكذا فقد حاول د. محمد كامل حسين أن يصنع نموذجًا جديدًا لما أسماه بالفصحى المخففة ويدعو إلى تعلمه ، ويرى أن المنهج الذى ينبغى أن يقوم عليه تعليم هذا المستوى اللغوى يلتزم بالتدرج من أدنى مراتبة فى العامية المنقحة إلى أعلى مرتبة فى الفصحى العالمية .

وهذا التدرج يتعلق بسن المتعلم والمرحلة الدراسية التى يمر بهـا، فتعليم قواعد هذه الفصحى المخففة يبدأ من العامية المنقحـة لأن الأطفـال يدخلون المدارس وهم يتحدثون العامية ويستخدمونها بطلاقة ومن ثم ينبغى أن ننقحها تنقيحًا يسيرًا ونوجه الطفل إلى هذا المستوى المنقح من العامية .

أما الفصحى المخففة وهي المستوى الذى يـدعو إلـى اسـتخدامه ووصف نظامه ، وإشاعة تعليمه وهو يتمثل فى النموذج الذى وضعه فيقوم على عدم التمسك بالأعراب إلا فى الحالات الواضحة التى لا لبس فيها كما يقوم على إطراد أبواب الفعل وصيغ المصادر وجموع التكسير إلا فيما هو مشهور والعدو عن مطابقة الفعل لفاعل عندما يكون مبنيًا وإغفال مخاطبة الرجال والنساء فى حالات الجمع وإباحة النطق بالكلمات غيـر الشـائعة بالصيغ المختلفة ، وأن المعنى هو الذى يحدد الأعراب وغير ذلـك مـن القواعد التفصيلية التى تضمنها هذا النموذج المقترح للفصحى المعاصرة .

وصفوة القول أن حركة التيسير والإصلاح كانت خاضعة خضوعا تامًا للتفكير اللغوى التقليدى لأسباب عدة ، فمعظم من نادى بها قد تعلم فى ظل النموذج التقليدى سواء فى الأزهر أم دار العلوم ، ومن ثـم تمسـكوا حتى بعد أن ترامت إلى أسماعهم مبادئ علم اللغـة الحـديث وأصـوله . وأصبح هذا النموذج جزءًا لا يتجزأ من طبيعة التفكير اللغـوى عنـدهم،

ينظرون من خلاله ويفكرون على هدى من أصوله ، ولا يظهر فى أعمالهم أدنى أثر لعلم اللغة إلا بطريق غير مباشر يتمثل فى دراسة الأصوات والدعوة إلى استبعاد المعايير المنطقية والفلسفية من الدراسة اللغوية ، وحتى فى مثل هذه الدعوات نجد أصداء لها فى التراث العربى ، أما هؤلاء الذين دعوا إلى تطبيق منهج علم اللغة الحديث فلم يعرف إلا مظاهر هذا العلم دون أصوله ومبادئه فلم يوجه هذا العلم أية دراسة من دراسات أصحاب التيسير والإصلاح توجيهًا حقيقيًا واضحًا .

وهكذا فشلت جميع جهود أصحاب دعوات التيسير والإصلاح سواء على المستوى النظرى أم المستوى التطبيقى فلم يستطيعوا إمداد الفكر اللغوى بنموذج جديد طبقا لأصول جديدة وبالتالى لم يستطيعوا تقديم قواعد معيارية أيسر وأسهل لافتقادهم إلى نظرية جديدة .

قد يكون من الصعب تحديد البدايات الأولى لانتقال الفكر اللغوى لحديث إلى ميدان التفكير اللغوى فى مصر والعالم العربى . ولكن البدايات الأولى ترجع إلى بداية الاتصال بالحضارة الغربية فى العصر الحديث والتى بدأها رفاعة الطهطاوى فقد آثر فى بعض كتبه الاهتمام بدراسة اللغات واللغة الفرنسية أثناء بعثته هناك ودعا إلى انتشار مجمع للغة العربية على غرار المجمع العلمى الفرنسى ، كما ظهرت بعض أفكار الدراسة اللغوية الحديثة فى مقالات نشرها المقتطف ، وفى كتابات جورجى زيدان الذى نشر فى فترة مبكرة كتابين فى اللغة أحدهما كتاب " الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية " ١٨٨٦ ، والكتاب الثانى " اللغة العربية كائن حى " وفى هذين الكتابين حاول أن يعرض شيئًا مما كان متداولاً بين علماء

اللغة فى الغرب عن طبيعة اللغة ووظيفتها وطرق تحليلها وأن يستفيد من ذلك فى دراسة اللغة العربية وكان يعتمد على الترجمة من كتب المستشرقين وخاصة الألمان منهم .

كما كان لإنشاء الجامعة الأهلية ١٩٠٨م أثر فى تداول وإشاعة جانب من الدراسة اللغوية الأوربية ، وزاد هذا الاهتمام عقب تولى الدولة أمر الجامعة ١٩٢٥م وارتبط التدريس الحدة حينئذ بعدد من المستشرقين معظمهم من الألمان استقد منهم الجامعة للتدريس بها منهم " أنوليتمان " وبول كراوس " وبرجشترا سر " وقاد هؤلاء المستشرقون كتاب المستشرق الألمانى " برجشتر اسر " التطور النحوى للغة العربية من أهم الكتب فى الاتجاه التاريخي المقارن .

وقد تميز الجيل التالى لجيل الرواد بأنه كان من أبناء مدرسة لغوية واحدة ففى دار العلوم كان د. عبد الرحمن أيوب ، و د. تمام حسان ، ود. كمال بشر وفى جامعة الإسكندرية كان الدكتور محمود السعران ، وكتاب " دراسات نقدية فى النحو العربى ١٩٥٧م للدكتور عبد الرحمن أيوب، فعنوانه يدل على محتواه دلالة مباشرة فهو نقد للتراث النحوى العربى قدم له ناقد قديم للنحو العربى هو الأستاذ إبراهيم مصطفى الذى يرى فى عمل المؤلف فجرًا جديدًا يحيي بحوث النحو ويعيد إليه سريته الأولى ، وينطلق د. أيوب فى نقده للنحو العربى من تجربة تدريسه له فى دار العلوم . ومما يلفت النظر فى هذا النقد أننا أمام تعميم لا يقف عند حدود نقد التفكير النحوى عند العرب بل يتعداه إلى الثقافة العربية كلها التى وصفها مع لتفكير النحوى " التقليدية " ومن ثم فنحن أمام تفكير نحوى تقليدى نعرفه ،

ولون آخر من التفكير النحوى غير التقليدى لا نعرفه . ووصـــف علمـــاء اللغة العربية القدماء والنحو العربى بمصطلح " التقليدية " هو تبنى لوجهة نظر أوربية فى دراسة تاريخ الفكر اللغوى اللسانى ، وهو وصف ينـــتظم عندهم الدراسات اللغوية قبل دى سوسير ، فى مقابل النظريـــات اللغويـــة الحديثة .

ثم صدر كتاب " اللغة بين المعيارية الوصفية " للدكتور تمام حسان بعد كتاب د. أيوب بعام واحد . وإذا كان الدكتور قد وصـــف الدراســـات النحوية العربية بالتقليدية فإن الدكتور تمام حسان يستخدم فى وصف هـــذه الدراسات مصطلحًا جديدًا استمده من التفكير اللغـــوى الأوروبـــى وهـــو مصطلح المعيارية فى مقابل الوصفية .

وكتاب الدكتور تمام حسان يمزج بصورة متوازية بين أمرين هما :

١- الدعوة إلى المنهج الوصفى فى دراسة اللغة .

٢- نقد التفكير اللغوى العربى القديم ، ووصفه بالمعيارية .

وهو نقد منهجًا قديمًا ويقدم منهجًا بديلاً مستمدًا من التفكير اللغوى الحديث .

ويقسم تاريخ الفكر اللغوى عند العرب إلى مرحلتين إحداهما كانت تطبق الوصفية والأخرى المعيارية . ويرى أن العصر الفاصل بين هاتين المرحلتين ينتهى عند عصر الاستشهاد ، فكان على اللغويين أن يســـتمروا فى دراسة اللغة دون أن تتجدد الشواهد فداروا حول ما وصفه الأولون ولم يبحثوا عن مادة لغوية جديدة .

وفرق د. تمام حسان بين ناحيتين من نواحي النشاط اللغوى همـا ناحيتا الاستعمال والبحث اللغوى . أما الاستعمال فهو وظيفة المتكلم وأمـا البحث اللغوى فهو وظيفة عالم اللغة .

والاستعمال تطبيق لقواعد غير واضحة أو غير واعية عند المتكلم والبحث اللغوى تقنين وتفتيش عن هذه الأسس حتى تكون واضحـة عنـد الدرس والاستعمال باعتباره تطبيقًا يتوخى معايير معينة ، ولكن الدراسـة اللغوية هى بحث علمى يقوم على الاستقراء ليصل منه إلى وصف الحقائق اللغوية . ومن ثم يفرق بين الاستعمال والمعيارية وبين البحـث اللغـوى والوصفية فالاستعمال تطبيق معيارى يتوخى الصحة ويبحث عن الجـائز وغير الجائز ، أما الدراسة اللغوية فمنهجها الوصف وهدفها الكشف عـن القوانين التى تحكم الاستعمال .

ولم يكن التفكير النحوى العربى تفكيرًا معياريًا خالصًا كما لم يكن أيضًا وصفًا تقريرًا محضًا لا يفسر ولا يعلل مثل الوصفية التى دعا إليهـا د. تمام حسان ، حتى استقر فى عقول بعـض البـاحثين أن علـم اللغـة الوصفى إذا ما تطرق إلى التفسير أو التعليل للظواهر اللغوية تخلى عـن علميته ودخل فى نطاق البحث الفلسفى الميتافيزيقى وهذا ليس صحيحًا .

وكان كتاب دراسات فى علم اللغة ١٩٧١ للدكتور كمال بشر بحث عن التفكير اللغوى عند العرب فى ضوء علم اللغة الحديث يختلـف هـذا البحث عن كتاب د. أيوب " دراسات نقدية فى النحو العربى " وكتـاب د. تمام حسان " اللغة بين الوصية المعيارية " .

فهذا البحث لا يعرض بصورة مباشرة لنقد التفكير اللغوى عند العرب وإنما يحاول الكشف عن جوانب من هذا التفكير تتفق وعلم اللغة الحديث وهو اتجاه ماليث أن أصبح تيارًا أو حركة جديدة فى قراءة التراث العربى سعيًا وراء تأصيل هذا التراث وفق نظريات علم اللغة تمهيدًا للكشف عن نظريته الأصلية .

ويبدأ د. كمال بشر بتحديد مفهوم التفكير اللغوى الحديث وهو عنده يتصل بطائفتين :

الطائفة الأولى : تتصل بجوهر اللغة وحقيقتها وترتبط بالعناصر المكونة لها ، وهى عبارة عن أصواتها وصيغها وتراكيبها ثم مفرداتها ومعانى هذه المفردات . وهذه الجوانب هى أساس البحث اللغوى وهدفه الحقيقى ، ولهذا خصص لها علماء اللغة فرعًا من فروع علم اللغة ، وبعد أن يحدد فروع علم اللغة الحديث ، ومهام كل فرع من هذه الفروع ينتقل إلى الطائفة الثانية التى تتصل بعلم اللغة وتتمثل فى مجموعة من القضايا والمسائل العامة مثل اللغة وظيفتها فى المجتمع وعلاقة اللغة باللهجات والمستويات اللغوية من فصحى وعامية والصواب والخطأ وغير ذلك . وهاتان الطائفتان تكونان معًا علماً واحداً هو ما يسمى بعلم اللغة . Linguistics

ويقرر د. كمال بشر أن علماء العربية القدماء لم يدركوا تمام الإدراك مدى العلاقة أو الارتباط بين فروع الدراسات اللغوية ، ومن ثم نراهم ينظرون إلى هذه الفروع كما لو كانت منفصلة بعضها عن بعض .

وعلى الرغم من أن سيبويه قد جمع فى كتابه بين الدراسات الصوتية والصرفية والنحوية فى كتاب واحد . إلا أن هذا لا يعنى أن سيبويه أو غيره من علماء العربية قد أدركوا بوضوح طبيعة العلاقة بين فروع علم اللغة ، أو لم يستفيدوا الفائدة المرجوة فى استغلال نتائج البحث فى هذه العلوم لخدمة بعضها البعض .

ويرى د. كمال بشر أن الدرس اللغوى عند العرب لم يكن خاليًا من نظرات منهجية صائبة بل على العكس كانت هناك بوادر طيبة تتمثل عنده فيما يلى :

١- جمعوا اللغة بأسلوب المشافهة وهذا يعنى أنهم اعتمدوا فى عملهم على اللغة المنطوقة وهى المصدر الحقيقى فى الدرس اللغوى الحديث .

٢- حددوا دائرة التلقى والأخذ بتحديد القبائل التى يسمعون منها وإن كان اتساع الدائرة الجغرافية للقبائل أدى أحيانًا إلى الخلط والاضطراب فى التلقى .

٣- إدراكهم لأهمية الكلام وظروفه ، إلا أنهم فى تطبيق هذا المبدأ كانت تحكمهم نظرة معيارية لا وصفية .

٤- الدراسة الصوتية هى أجود عمل لغوى عند العرب من حيث المنهج وطرق الدراسة ، وهى تدخل فى إطار ما يسمى بالفونولوجيا أو علم الأصوات الوظائفى ، وقد توسع د. كمال بشر بملاحظاته هذه عن دراسة الأصوات عند العرب فى القسم الثانى من كتابه علم اللغة العام " الأصوات " الذى استقل فيه بدراسة أصوات العربية ومشكلاتها فى ضوء التفكير الصوتى ، والواقع أن هذا الاتجاه فى دراسة التراث

اللغوى العربى ونقده والبحث عن الجوانب المشرقة فيه قد يتفق مع ما ذكره د. أيوب فى دراساته النقدية أو د. تمام حسان فى اللغــة بــين المعيارية والوصفية إذ يستند إلى النظرية اللغوية الحديثة ســواء فــى النقد أم فى بيان الجوانب لمضيئة فيه ، ولكن يأتى الاخــتلاف فــى أ أسلوب النقد فقط ولكنهم جميعا يتفقون على أوجه معينة تترد فى هــذا الصدد كالتأثر بالمنطق والفلسفة وغلبة الروح المعياري والاتجاه إلــى التأويل الافتراضى و غير ذلك ولكن د. بشر يضيف إلى هــذا النقــد جانبا جديداً وهو غياب النظرية اللغوية أو بمعنى أدق عــدم وجــود نظرية لغوية استند إليها علماء اللغة العربية القدماء فى دراسة اللغة .

وأغلب الظن أن النظرية موجودة ولكنها تحتاج إلى الكشف عنهــا فليس من المعقول أن يقوم هذا البناء الضخم فى الدرس اللغــوى العربــى دون نظرية .

وقد أشار د. كمال بشر إلى بعض جوانب هذه النظرية عندما قــال بغلبة الطابع العلمى على البحث اللغوى عند العرب ، وهى إشارة مهمة قد تفسر بعض ما وصفه بعدم التكامل أو فقدان المنهج .

فعلماء العربية لم يكن همهم اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها ، وإنما كان همهم الأول دراسة اللغة العربية وحدها بما لها مــن صــلة بــالقرآن الكريم فهما أداء ، ومن هنا برز الجانب التعليميــى أو المعيــارى وهــو ضرورة كان يحتمها اتجاه العرب فى دراسة العربية ، ومعنــى هــذا أن نظرة العرب إلى اللغة كانت تختلف عن النظرية اللغويــة الحديثــة فــى أصولها وأهدافها .

ومن المناهج التى بينها المبعوثون وقدم هؤلاء أبحاث ودراسات حول تحليل اللغة كانوا يتبنون النظرية البنيوية أو مناهج علم اللغة البنوى فى التحليل اللغوى ، وقد مثل هذا الاتجاه العديد من الكتب والدراسات التى تناولت مستويات التحليل اللغوى ، ومن أهم الكتب التى تناولت مستويات التحليل اللغوى كتاب د. تمام حسان مناهج البحث فى اللغة ١٩٥٥ ، وكتاب د. محمود السعران علم اللغة مقدمة للقارئ العربى ١٩٦٢م .

وفى كتاب د. تمام حسان " استخدام المورفيم Morpheme و كما يسميه الوحدة الصرفية أول مرحلة من مراحل التركيب فى اللغة ، ويقول إن كثيراً من الباحثين يغمض عليهم هذا المصطلح حتى ليخلطون فى تفسيره وتطبيقه خلطًا كبيرًا ، ويعتمد فى تعريفه للمورفيم على " فندريس " لا على " بلورمفيلد " ولذلك جاء تحديد هذا المصطلح عند د. تمام غير واضح .

أما التحليل النحوى أو كما يسميه منهج النحو فهو عنده عبارة عن دراسة العلاقات بين الكلمات داخل الجملة وتحليلها أو دراسة العلاقات بين الأبواب يسعى وراءهم عالم النحو ، وهو يحلل ويدرس هذه العلاقات على أساس شكلى خالص مقتفيًا فى ذلك أثر مدرسة بلومفيلد ومستبعدًا المعنى من التحليل النحوى ولذلك كان مفهوم النحو عنده هو دراسة الجمل التامة من ناحية العلاقات الأفقية Syntagmatic فى مقابل الصرف الذى يدرس العلاقات الرأسية Paradigmatic relations أو الجدولية ، ومفهوم النحو عنده هو عبارة عن تحليل لبنية الجملة يقوم على تصنيف عناصرها تصنيفاً

شكليًا وظيفيًا بعيدًا عن ما يسميه المعنى النفسى أو المعنى الـذى تتحـدث عنه نظرية المعرفة .

ويعتمد على فكرة القصائل النحوية فى دراسـة العلاقـات داخـل الجملة من حيث علاقة الفعل بالفاعل والمبتدأ بالخبر دون أن يـربط بـين القصائل النحوية والمورفيمات وأنواعها ووظيفتها فى بيان بعـض هـذه القصائل ولكنه يربط بين هذه القصائل النحوية مثل الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث والزمن وبين ما يسميه التعليق السياقى أو الربط السياقى لأن هذه القصائل تمثل عنده علاقات بين أجزاء الجملة .

أما كتاب د. محمود السعران " علم اللغة مقدمة للقارئ العربـى " فيرى المؤلف أن معظم علماء اللغـة يتنـاولون فـى التحليـل النحـوى موضوعين أساسين هما :

١- المورفولوجيا Morphology .

٢- النظم Syntax

وهذا التناول يتم بناء على أصول شكلية أو صورية Formal لأن كل لغة تعرض المعانى بطرق خاصة ونحن نتلقى هذه المعـانى مرتبـة بالترتيب الذى يقدمه لنا الكلام أى فى الصور والأشكال اللفظية التى يظهر بها الكلام . ومن أهم صفات التحليل النحوى لهذه الأشـكال اللفظيـة أن يستبعد عالم اللغة الأصول الفلسفية القديمة فى التحليل كما يسـتبعد أيضـا التقديرات العقلية وما إليها من تأويل أو تفسير ، ومن ثم فـإن أهـم مـا يوصف به التحليل النحوى أن يكون شكليا أو صوريا ، لأن هدفـه هـو الصور اللفظية وتصنيفها على أسس معينة ثم تصنيف العلاقات الناشئة بين

الكلمات داخل الجملة وهذا التحليل تحليل وظيفى لأنه يقـوم علـى إدراك الدور الذى تقوم به الكلمة داخل الجملة ، ومن ثم ينبغى استبعاد المعنى من التحليل النحوى .

ومع ذلك يقرر أن الوحدات النحوية التى يقوم عليها التحليل النحوي تتألف عادة من المورفيمات والكلمات وهى الوحدات الحاملـة للمعنـى ، ونلمح محاولة للتوفيق بين آراء بلومفيلد التصنيفية الشـكلية واسـتبعادها للمعنى وآراء فيرث الذى ينطلق فى نظريته من المعنـى ، ولا شـك أن فيرث كان واحداً من هؤلاء اللغويين الذين ربطوا بين التحليـل النحـوى والمعنى ، ولكن سطوه المدرسة الشكلية الأمريكية كانت تحول دون ظهور عمق التحليل النحوي وواقعيته من حيث ارتباطه بالمعنى سواء عند فيرث أو غيره من علماء اللغة وهو ما استدركته النظرية التحويلية فى تعاملهـا مع البنية العميقة للتراكيب النحوية حيث يتجلى المعنى الحقيقى للجمل .

غير أن التحليل النحوى الشكلى قد جود مناخًا مهيأ لقبوله فى الفكر اللغوى العربى الحديث نظراً لرفضه التعليلات المنطقية والتقديرات النحوية التى ارتبط بها التحليل النحوى التقليدى ، ومن ثم ارتبط المنهج الشـكلى عند عدد كبير من الباحثين بالوصفية حتى أصبحت تعنى عند جمهرة كبيرة من اللغويين العرب التحليل الكلى للغة بعيدًا عن المعنى خصوصًا فى العقد السادس من القرن الحالى حيث أصبحت الشكلية والتحليل الشـكلى علـى المستوى النحوى من أصول علم اللغة الوصفى .

يأتى كتاب اللغة العربية معناها ومبناها ليقف وحيـدا فـى مجـال تطبيق النظرية اللغوية الحديثة على اللغة العربية ، وأعنى بالنظرية اللغوية

الحديثة الإطار العام والتحليلى للبنيوية التى سيطرت على الفكر اللغوى إلى ما قبل ظهور نظرية تشومسكى فى رأى بعض المؤرخين كما أعنى بهـا نظرية فيرث اللغوية .

والنظرية اللغوية التى طبقها د. تمام حسان فى دراسته للغة العربية هى نظرية فيرث وهذه النظرية تأتى بها ثلاثة من دعاة الوصفية د. تمـام حسان ، د. كمال بشر ، د. محمود السعران .

وكتاب اللغة العربية معناها ومبناها يمثل نموذجًـا وصـفيًا للغـة العربية الكلاسيكية أو المستعملة فى هذا العصر و فـى أى عصـر مـن عصور العربية أو إحدى لهجاتها ، وإنما هو من قبيل إعادة النظـر فيمـا جاء من كتاب النحو والصرف من وصف للغة العربية الكلاسيكية وبعبارة أخرى هو قراءة جديدة للتراث اللغوى العربى من منظـور علـم اللغـة الحديث .

ويقوم النظام الصرفى فى كتاب اللغة العربية معناها ومبناها علـى ثلاثة أصول هى :

١- المعانى الصرفية التى يرجع بعضها إلى أقسام الكلام وبعضها الآخـر إلى تصريف الصيغ .

٢- الصيغ الصرفية التى يتمثل بعضها فى الصيغ المجردة ويتمثل بعضها فى زوائد تلحق بالكلمات كما تتمثل فى دلالة بعض الأدوات .

٣- مجموعة من العلاقات تتمثل فى وجوه الارتباط بين المعنى وعدد من القيم الخلافية أو المقابلات وهى وجوه الاختلاف بين هذه المبانى .

ويستعمل الدكتور تمام حسان مصطلح " المبانى الصرفية " ليدل به على مصطلح المورفيمات Morphemes غير أنـــه يجـــد أن مصـــطلح المبانى الصرفية لا يكفى للدلالة على المعانى الصرفية الوظيفية فى بيـــان طبيعة هذه المورفيمات فيضيف إليها مصطلحًا آخر ويعده من مورفيمـــات اللغة العربية وهو مصطلح مبنى التقسيم وهى المبانى التى تندرج تحتهـــا الصيغ الصرفية المختلفة التى يصب فى قالبها كل قسم من أقسام الكـــلام ، فكل الصيغ الصرفية التى للأسماء بأنواعها والصفات والأفعال تندرج تحت معانى التقسيم هذه ويلحق بهـــا الضـــمائر بأنواعهـــا وأســـماء الإشـــارة والموصولات والظروف والخوالف والأدوات ، بالرغم من أنها تختلف عن مبانى التقسيم ، إذ ليست لها مبان صرفية أو صيغ تجرى عليها .

يضاف إلى هذا طائفة أخرى من القيم الخلافية أو المقابلات التـــى تتمثل فى وجوه الاختلاف بين هذه المبانى وهذه العلاقات ، وجوانب هـــذه تمثل نوعًا آخر من المورفيمات لا يظهر فى المعنى ولكن تدل عليه الصيغ الصرفية أحيانًا كما تدل عليه أحيانا أخرى المقابلة بين بنية لغوية معينـــة وأخرى . فمثلا الفعل " ضرب " على صيغة " فعل " وهـــذا المبنـــى مـــع المعنى وهو الفعلية والمعنى يعطى معانى التقسيم ، أما معانى التصـــريف فتتمثل من حيث المبنى فى استتار الفاعل ومن حيث المعنى فى الإسناد إلى الغائب .

أما الضمير فهو من حيث معانى التقسيم يظهر مبناه فـــى صـــورة الضمير نفسه ، ومعناه فى الدلالة على الإضمار ، أما من حيـــث معـــانى

التصريف فصورة الضمير من حيث المبنى هو ضمير رفع منفصل ، ومن حيث المعنى تدل على الإفراد والتذكير والغيب .

وبناء على هذه المعايير المختلفة وضع الدكتور تمام حسان جدولاً تمثلت فيه المورفيمات المختلفة للغة العربية ، ووزعها وفق هذه التقسيمات ومهمة المورفيمات تنحصر في ثلاث وظائف هي :

١- التعريف أو التحديد Identification

٢- التصنيف Classification

٣- التوزيع Distribution

ومعنى هذا أن إضافة مورفيم إلى مورفيم آخر أو نزعــة منــه أو مقابلة مورفيم بآخر أو تحديد المورفيم الصغرى يؤدى إلى تصنيف تحديد هذه المورفيمات فى أى لغة أى أننا من خــلال التحليــل المورفولــوجى نستطيع أن نصل إلى ثلاثة عناصر تحدد طبيعة المورفيم فى هــذه اللغــة وهى :

١- بنية المورفيم أو صورته الصوتية .

٢- معنى هذه البنية سواء أكان وظيفيا أم دلاليًا .

٣- وظيفة المورفيم النحوية .

وبناء على هذا نجد أن مبانى التقسيم ومعانى التصــريف لا تكــاد تخرج عن واحد من المورفيمات كلها أو بعضها . ومثال ذلك فى الفعــل ضرب " يمكن تحليله مورفولوجيًا على النحو التالى :

١- مورفيم حر يتمثل فى الجذر ض ر ب

٢- مورفيم صفرى يتمثل فى الصيغة " فعل " التى تدل على المعنى والفعلية .

٣- مورفيم صفرى آخر هو الضمير المستتر ويدل على الإسناد للغائب .

٤- مورفيم مقيد يتمثل فى حركة الفتح التى تدل على البناء .

وفى الاسم " الكتاب " يمكن تحليله على النحو التالى :

١) مورفيم مقيد يتمثل في الألف واللام التى تدل على التعريف .

٢) كتاب مجردة من التعريف مورفيم آخر .

٣) مورفيم صفرى يتمثل فى صيغة فعال التى تدل على الاسمية .

وفى الضمير " هو " يمكن تحليله على النحو التالى :

١. ورفيم حر يدل على الانفصال والتذكير والإفراد والغيبة.

٢. مورفيم صفرى يتمثل فى حالة الإعراب أى الرفع .

٣. مورفيم صفرى يتمثل فى علاقة البناء .

ومعنى هذا أن المورفيم قد يكون مقطعا واحدا أو عدة مقاطع وأحيانًا يكون فونيمًا واحداً ، ويضاف إلى ذلك المورفيم الصغرى الذى لا يتمثل فى بنية ، بل يستدل على وجوده من المعنى الوظيفى أو الاستتار أو الحذف . بل أن النبر والتنغيم والوقف تمثل عناصر مورفولوجية ، ومعنى هذا أن استقصاء مورفيمات اللغة العربية وحصولها هو عمل صرفى ونحوى فى آن واحد ، ومن ثم تصبح قضية تحديد أقسام الكلام فى حاجة إلى إعادة النظر لأنها تقوم اساسا على مفهوم الكلمة من حيث هى عنصر لغوى مستقل وهو ما لم يسلم به الوصفيون وعلى رأسهم الدكتور تمام حسان . إذ إن مصطلح الوظيفة عند علماء اللغة لا ينصرف إلى الوظيفة

النحوية فقط أو إلى وظيفة المورفيم في التركيب وإنما يتجاوزه إلى ما يسمى بالتحليل الوظيفي للكلام ، وهو يتناول كافة مستويات اللغة ، حيث ينظرون إلى العلاقات التركيبية من الفونيمات إلى الجمل ، ولكن الدكتور تمام حسان أبقى على فكرة تقسيم الكلام إلى أقسام فأصبحت عنده تنقسم إلى اسم وفعل وصفة وضمير وخالفة وظروف وأداة .

وهذا التقسيم يقوم على أساس وظيفي أو على مفهوم المورفيم ودوره سواء على المستوى الصرفي أم النحوي حيث يظهر من التحليل الموفولوجي ما يلي :

١- بيان لوظائف أو العناصر المورفولوجية .

٢- بيان الوظائف النحوية وهي وثيقة الصلة بالوظائف الصرفية غير أن بيان الوظيفة النحوية قد يتم عن طريق الموقعية أحيانًا كما في مثل ضرب عيسى موسى كما يتم أيضا عن طريق بيان وظائف حركات الإعراب من حيث هي مورفيمات .

وبيان الوظائف النحوية والصرفية للمورفيمات تبين في ذات الوقت وظيفة هامة لهذه المورفيمات وهي تكوين العلاقات النحوية ومعنى هذا أن الوظيفة اللغوية للمورفيم سواء أكان حراً أم مقيدا أم صفريا هي المحصلة من استخدامه على مستوى التركيب ، وقد مزج الدكتور تمام حسان بين فكرة تقسيم الكلام إلى أقسام وهو تصور تقليدي يقوم على وحدة لم يعترف بوجودها الوصفيون في الكلام وهي الكلمة وبين التحليل الموفولوجي وفكرة المورفيم التي حلت محل مفهوم الكلمة في النظرية اللغوية الحديثة .

أما النظام النحوى فى كتاب اللغة العربية معناها ومبناها فهو يتصل بوضع وتركيب الكلمات داخل وحدة لغوية أكبر تسمى فى النحو التقليـدى الجملة . وقد اقام الدكتور تمام حسان تحليله للمستوى النحوى على فكـرة التعليق التى استقاها من عبد القاهر الجرجانى أو العلاقات السياقية حتـى تنشأ علاقات من التوافق والاختلاف أو التناظر تحكمها شبكة من القـرائن تتحول فيها المورفيمات إلى نظام من العلاقات تتجاور أفقيًا مـن ناحيـة ورأسيا من ناحية أخرى . أما العلاقات السياقية فتقوم على قرائن معنويـة وقرائن لفظية ، وكل ذلك يتصل بالمبنى أو ما يسميه الدكتور تمام المعنى المقالى وهو يقابل السياق اللغوى Linguistic Context عند فيرث .

وتتمثل القرائن المعنوية عنده فيما يلى :

١- قرينة الإسناد أى العلاقة الرابطة بين المبتدأ والخبر والفعل والفاعل .

٢- قرينة التخصص مثل التعدية فى المفعول به والمعية فى المفعول معه ، والظرفية .

٣- قرينة المخالفة مثل المنصوبات التى يتغير المعنى برفعها .

٤- قرينة النسبة وهى معانى حروف الجر التى تنسب بها معانى الأفعـال إلى الأسماء .

٥- قرينة التبعية مثل النعت والتوكيد والعطف والبدل .

أما القرائن اللفظية : فتمثل فيما يلى :

العلامة الإعرابية - الرتبة - مبنى الصيغة - المطابقة - الربط - التضام - الأداة - النغمة .

وهذه القرائن المعنوية واللفظية تؤدى عنده إلى فكرة تضافر القرائن وهى التى تؤدى إلى وضوح المعنى الوظيفى النحوى أو المعنى المقالى .

ويرى أن هذه الفكرة تغنى عن نظرية العامل أى أن المعنى النحوى عنده لا يظهر إلا من خلال عدد من القرائن حراسة للمعنى من خلال المبنى أو ما أسماه بأمن اللبس .

ولكن هذه القرائن سواء اللفظية أم المعنوية يمكن بالتحليل المورفولوجى الكامل للغة العربية أن تدخل فى إطار المورفيمات بأنواعها الثلاثة فهى بمجموعها معان وظيفية نحوية وصرفية ناتجة عن توزيع هذه المورفيمات وفق علاقات تركيبية .

ففى جملة مثل : ضرب زيد عمراً ، نجد أن القرائن اللفظية والمعنوية تتحقق من خلال مورفيمات الصيغة والإعراب والبناء والرتبة والإسناد وغيرها وهي مورفيمات بعضها لفظي والبعض الآخر صفرى أى لا تتحقق لفظا ولكنها تقوم بوظيفة لغوية واضحة .

فالتحليل النحوى عند الدكتور تمام حسان كما هو أيضا عند فيرث شبكة من العلاقات السياقية المقالية أو اللفظية تبدأ من الفونيمات ثم المورفيمات وتنتهى إلى التركيب فى وحدة أكبر وهذه العلاقات اللفظية أو المعنوية تقوم على مبدأ توزيعى تنشأ منه علاقات توافق أو اختلاف أو تناظر بين العناصر اللغوية المكونة للتركيب وهي جزء من هذه العلاقات السياقية . ولكن تحليل هذه العلاقات ورصدها وتصنيفها لا يؤدى إلا إلى المعنى المقالى فقط ويتبقى بعد ذلك جزء مهم من المعنى لا يكتمل إلا بالسياق الاجتماعى Context of Situation وهو شق من نظرية السياق عند فيرث وبه يكتمل المعنى .

ب – السمات

عرفت الشعوب القديمة النحو حين استخلصت قواعد Grammaire تميز بها الصيغ السليمة من غيرها ، ولذلك يجد الدارس أشكالا من درس النحو الذى اهتم منذ بروزة ببيان حدود الخطأ والصواب وفق المواضعات اللغوية الخاصة بهذه اللغة أو تلك وخصائص النحو التقليدى بقيت سمة للدرس النحوى حتى جاءت اللسانيات الحديثة بالمنهج الوصفى الذى جنح بالدراسات اللغوية عامة إلى سبيل جديد من سبل الدرس العلمى .

ومن هنا بدأ نوعان من السمات ببرزان : أحدهما أطلق عليه "النحو المعيارى" والآخر أطلق عليه " النحو الوصفى " ولا شك فى أن ظهور النحو الوصفى لم يلغ النحو المعيارى الذى بقى متداولا فى الأوساط التربوية فالنحو المعيارى La Grammaire يقوم على أساس التمييز بين مستويات اللغة : لغة مثقفة ، ولغة شعبية ، ولهجة " أما النحو الوصفى فقد اقتصر على الوصف العلمى المحايد دون أن يتطرق إلى الصحة والخطأ ، ونظر إلى القواعد نظرة جديدة ترى فيها جهات اشتراك بين حالات متشابهة توصف وتصنف بعد استقراء واسع للكثير من الأمثلة والأساليب المتداولة .

ولأن الدراسات النحوية المعاصرة تنهج نهجًا وصفيًا ينبذ كل موقف معيارى قد تجاوزت حدود النحو المعيارى إلى الاهتمام العلمى بالقواعد أو التركيب Syntaxe وصولاً إلى الكليات اللغوية التى تشترك فيها اللغات الإنسانية .

ومن هنا تظهر أهمية هذا الدرس المعاصر على أساس أنـــه نهـــج جديد يضاف إلى مناهج الدرس اللغوى .

والمنهج المعاصر فى الدراسات النحوية لا يتوقــف فـــى درســـه لتراكيب الجمل وأنماطها عند العلاقات الشكلية التى اهـــتم بهـــا الـــدرس المعيارى ، إنما يتعدى ذلك إلى البحث عن المعانى التى تعبر عنها تلـــك التراكيب .

أنواع الجمل

الجملة عند النحاة مصطلح يدل على وجود علاقـة إسـنادية بـين اسمين أو اسم وفعل ، والإسناد هو نسبة إحدى الكلمتين إلى الأخرى .

وفسرت النسبة بأنها إيقاع التعلق بين الشيئين والجملة فى العربيـة الفصحى نوعان : جملة اسمية وجملة فعلية فالجملة الأسـمية موضـوعة للإخبار بثبوت المسند للمسند إليه . بلا دلالة على تجدد أو استمرار . وإذا كان خبرها اسماً فقد يقصد به الدوام والاستمرار الثبوتى بمعونة القرائن .

وإذا كان خبرها مضارعا جملة فعلية فعلها مضـارع فقـد يفيـد استمرار تجدديا إذا لم يوجد داع إلى الدوام . فليس كل جملة اسمية مفيـدة للدوام .

والجملة الفعلية موضوعة لبيان علاقة الإسناد مع دلالة زمنية على حدث فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، ويشير إلى تجـدد سـابق أو حاضر " فى الماضى والحال " كما نشير إلى استمرار دون تجدد .

فنظام الجملة فى العربية الفصحى يسلك أحـد خطـين : أحـدهما يجرى على هذا النحو : مبتدأ " مسند إليه " + خبـر " مسـند "+ متعلـق ظرفى بالجملة الاسمية = جملة اسمية .

على حين أن الثانى منهما يجرى على النحو التالى :

فعل " مسند " + فاعل أو ما ينوب عنه " مسند إليه " + مفعول بـه مباشر + مفعول ظرفى = جملة فعلية .

ومن المعروف أن العربية الفصحى تعتمد على قرينة الإعراب لبيان وظيفة الكلمة في الجملة . ولذلك لم تعتمد على تحديد مواقع الكلمات كما هي الحال في اللغات الهندية الأوربية .

وعلى المبتدأ يعتمد في التفريق بين الجمل الاسمية والفعلية فإذا تقدم اسم لم يكن مسندا إليه نحو قولنا عليا أكرم محمد . وقولنا اليوم عاد المسافر .

بقيت الجملة فعلية وإن تصدرها اسم . لأن هذا الاسم من قبيل الفضلة وليس ركنًا إسناديًا . ومن الواضح أن قرينة الإعراب تساعد على بيان علاقات الإسناد وتحديد نوع الجملة .

ولا يعنى هذا أن المبتدأ فى الجملة الاسمية عندنا واجب التقديم لتبنى عليه الجملة . إذ قد يتقدم عليه الخبر وجوبا أو جوازاً إن كان اسمين أو كانا مما يعد فى المفردات كالمصدر المؤول . أما إذا كان الخبر جملة فعلية فإن المبتدأ واجب التقديم لأن عليه المعتمد فى تحديد نوع الجملة نحو قولنا " يد جاء " .

والجملة الاسمية فى العربية تتألف من اسمين دون رابطة إسنادية على غرار رابطة المعروفة بفعل " الكون " فى اللغات الهندية والأوربية والتى لا يقوم إسناد فى هذه اللغات إلا بها أو بالفعل المنصرف .

ويلاحظ أن العربية استعانت لإبراز الإسناد بالضمير ظاهرا أو مقدرًا .

وقد ارتأى الكوفيون أن خبر الجامد يحتمل ضميراً يعود إلى المبتدأ وإن لم يكن فى معنى المشتق كقولنا : هذا حجر ، وبذلك أصبح تقدير

الضمير واردا أيا كان الخبر جامداً أو مشتقا لأنه لابد من رابط يربط المبتدأ بالخبر . كما أستعانت العربية تأكيدا لوجود الإسناد ببعض الأدوات كالفاء والباء كما فى قولنا :

ما أنت بالرجل الذى تخشى بوادره .

وقولنا : الذى يتفوق فله جائزة .. وقوله : كل امرئ فله رزق .

والاحتياج إلى الدلالة الزمانية دفع إلى استعمال فعل " كان " أو يكون أو "سيكون" فى قولنا : ابن سينا كان طبيبًا .

وقولنا : الجو يكون لطيفًا فى الربيع .. وقولنا : الشجر سيكون مثمراً .. ولكن بعض الدارسين المحدثين فى العرب والمستشرقين نظروا إلى هذه الحالة وسابقتها أى حالة المبتدأ المحول على أنهما دليل على استقلال الجملة الاسمية ، بل على نفى وجودها أصلا ،وقد سعى هؤلاء على اختلاف مناهجهم إلى إلحاق الجملة الاسمية بالفعلية بتقدير فعل " الكون قبل المبتدأ أو بعده وتمثيل ذلك على الرأى الأول هو :

" يكون محمد رسول الله ، وعلى الثانى هو " محمد يكون هو رسول الله " والجملة أصلا هى " محمد رسول الله " .

ويرى برجشتراسر أن الجملة الاسمية المحضة أقدم تركيبات اللغات غير أن اللغات السامية حافظت على هذه الجملة ، فى حين تخلت عنها سائر اللغات ، فالجملة الاسمية كثيرة الاستعمال فى اللغات السامية كلها دون الاحتياج إلى الفعل الرابط بين جزئى هذه الجملة . أما الجملة الاسمية المحضة " أى التى تخلو من الفعل فتكاد لا توجد فى اللغات الهندية الأوربية والإيرانية والغربية ، فقد استخدمت هذه اللغات رابطًا بين جزئى

الجملة المشابهة للجملة الاسمية السامية ، وبدون هذا الفعل لا يمكن تشكيل جملة صحيحة إسنادياً .

المعنى النحوى

أظهرت الدراسات الحديثة للمعنى اللغوى أن الأحداث اللغوية معقدة مركبة ، ليس من السهل دراستها وتحليلها دفعة واحدة .

ويذكر أن اللغوى المعاصر (فيرث) Firthت ١٩٦٠م دعـــا إلـــى تحليل المعنى اللغوى إلى عناصره الرئيسية من جهة ووجـــوب الاعتمـــاد على المقام Context of Situation لكشف ظروف الكلام وملابساته من جهة أخرى .

والدكتور تمام حسان نحا هذا النحو فى دراسة المعنى ، وقد انتهى إلى أن الكلام يقسم أجزاء متتالية تبدأ من الصوت فالبناء الصرفى فـــالنحو التركيب " فالمعجم ويضاف بعدئذ " المقام " لينتج المعنى الدلالى ، وارتأى تمام حسان أن معانى أجزاء الكلام تجرى على هذا النحو :

١- الصوت : المعنى هنا وظيفى ، لأن الصوت مقابل استبدالى ليس لـــه معنى فى ذاته من الممكن أن نضيف إلى هذا المعنى ظـــلالا دلاليـــة مكتسبة من خلال الاستعمال الذى يضفى على أصوات بعض الكلمات ملامح خاصة ينبغى أن تؤخذ فى الحسبان حـــين التصـــدى للتحليـــل اللغوى .

٢- الصرف : والمعنى هنا وظيفى أيضا لأن المبانى الصرفية تدل علـــى المعانى من خلال وظائفها فهى أشكال وعلامات .

٣- النحو : المعنى وظيفى لأن علاقة الإسناد تقوم على المبانى الصرفية الوظيفية ، والعلاقة السياقية ما لم تحتسب معنى الكلمات المعجمـــى لا

تقدم إلا شكلا من ترابط المباني ذوات المعاني الوظيفية في الصوت والصرف .

٤- المعجم : وهو الذي يقدم المعنى الاجتماعي العرفي الذي تتم به أجزاء الكلام وعليه يتوقف المعنى اللغوي للصرف . ويظهر الفرق بين معاني الصوت والصرف والنحو من جهة ، ومعاني المعجم من جهة أخرى حيث ينشئ المرء .

٥- المقام : وهو مجموع العلاقات والظروف والملابسات الاجتماعية التي تحيط بالكلام . وهذه المعاني هي التي تمثل المعنى الدلالي للكلام اللغوي . وهذه المعاني يتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقًا ولا يجوز الفصل بين أحدها والآخر ، فالمعنى الدلالي الذي يستخلصه المرء من الكلام اللغوي أشبه ما يكون بالمركب الكيماوي الذي تنحل فيه عناصر متعددة لتعطي شيئا واحداً ليس فيه إجزاء متلاصقة أو أقسام متمايزة ، بل فيه صورة جديدة تولدت من جماع ذلك كله .

والمعنى النحوي لا يفسره الإعراب – كما يرى د. تمام حسان – لأن الإعراب قرينة لفظية من مجموعة من القرائن التي تتضافر لتوضيح المعنى ، وينتهي د. تمام حسان إلى أن تحليل المعنى النحوي يمكن أن يكون عن طريق فهم فكرة " التعليق " التي أشار إليها الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز " والتعليق عنده هو إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بوساطة ما دعاه بالقرائن اللفظية المعنوية والحالية .

القرائن المعنوية

يتوقف تحديد المعنى النحوى على مجموعتين من القـرائن التـى تؤخذ من عناصر المقابل . فوسيلة الوصول إلى المعنى النحـوى – دون احتساب المقام – هى التعرف إلى القرائن المتاحة فى التركيب المـدروس سواء كان معنويًا أم لفظيًا ، وما يتحصل للدارس من معنى نحوى ما هـو إلا نتيجة لتضافر القرائن .

(١) الإسناد :

هو العلاقة الرابطة بين طرفى الإسناد ، كالعلاقة بـين المبتـدأ و الخبر ، أوالفعل والفاعل . وتعدد هذه العلاقة عند فهمها قرينـة معنويـة على أن هذا مبتدأ وذلك خبر ، وأن هذا فاعل وذاك مفعول .. وبذلك يكون الإسناد عندنا من قبيل القرائن السياقية المعنوية على حين أنه فى اللغـات الأوربية نوع من القرائن اللفظية " الأفعال المساعدة " ، ويلاحظ فى هـذا الصدد أن الأفعال المساعدة تحمل معنى الإسناد والزمن . ولذلك لا تخلـو الجمل الواردة فى هذه اللغات من الزمن نصًا ومن أمثلة هذه القرينـة أن النحاة فرقوا بين نوعين من الأفعال المتعدية إلى مفعولين إذ جعلوا طائفـة منها تتعدى إلى مفعولين ليس أصلهما مبتدأ وخبر . وما ذاك إلا لاحتساب معنى الإسناد الأصلى مع تغير التركيب .

ومثال ذلك قولنا : ظننت الجو صحواً . فالمفعولان هنا جملة اسمية ولذلك بقيت بقية من معنى الإسناد فيهما ، وهما لذلك قابلان للرجوع إلـى الحالة الأولى من التركيب أى العودة إلى نمط الجملة الاسمية نحو قولنـا الجو صحو . أما قولنا : منحت المتفوق جائزة فلا نلمح فيه علاقة إسـناد

بين المفعولين لأنهما ما كان أصلا جملة اسمية ولا يصح أن يكون كــذلك فلا يقال المتفق جائزة إذ لا يجوز إسناد " جائزة " إلى " المتفوق " .

(٢) التخصيص :

هو قرينة معنوية تضم مجموعة من المعانى التى تفيد الإسناد بجهة خاصة . وأمثلة هذه القرينة متعددة منهــا التعديــة والغائيــة والظرفيــة والإخراج ففى التعدية يلاحظ أن المفعول به قيد فى الإسناد حال دون فهم الإسناد على إطلاقه نحو قولنا ضرب زيد عمراً .

فإيقاع الضرب على عمرو تخصيص لعلاقة الإسناد . وفى الغائية على عمرو تخصيص لعلاقة الإسناد . وفى الغائية يقدم المفعول لأجله مثلا على التخصيص . إذ يقيد الإسناد بسبب نحو أتيت رغبة فى لقائك .

وإسناد الفعل دون سبب أعم منه وهو مسبب ، ولذلك عد المفعــول لأجله واحداً من قيود الإسناد .

وفى الظرفية يخصص الإسناد بتقيده زمانا أو مكانا نحو :

صحوت إذ تطلع الشمس و عوقب الجانى أمام الناس

وفى الإخراج يدل الاستثناء على أن الإسناد لا يشمل المستثنى لأنه أخرج منه نحو قولنا : " نجح الطلاب إلا عليا " .

فإسناد النجاح هنا إلى الطلاب استثنى منه واحــدًا للدلالــة علــى إخراجه منهم ، ففى الإخراج تقييد للإسناد وتخصيص له .

(٣) النسبة :

هى قرينة معنوية تجعل علاقة الإسناد نسبية ، والنسبة هنــا غيــر التخصيص ، لأن التخصيص تقييد على حين أن النسبة إلحاق ، ويدخل فى

النسبة معنى الإضافة ومعاني حروف الجر التي تضيف معاني الأفعال إلى الأسماء وتنسبها إليها ، والنحاة القدامى أولوا هذه الحروف الدالة على المعاني اهتماما خاصا إذ أفردوا للحديث عنها أبوابًا واسعة ومؤلفات متعددة وكان النحاة حريصين على شرح ما تفيده معاني الجر من تعلق . على أن التعلق بين الجار والمجرور وبين ما تعلقا به إنما يكون بمعنى الحدث لا بمعنى الزمن فالتعليق بوساطة ما يفهم بالحرف من نسبة و في حقيقته إيجاد علاقة نسبية بين المجرور وبين معنى الحدث الذى في علاقة الإسناد نحو هلبنى زيد على الكرسى .. فالكرسى متعلق بالجلوس أى بالحدث لا بالمضى أى بالزمن ونحو أصحو فى وقت طلوع الشمس .

فوقت طلوع الشمس متعلق بالصحو على أن هناك نسبة للحدث إلى ظرف يحتوية وهذه النسبة إلحاق لا تقييد .

ويظهر الفرق بين هذين لمعنيين أى الإلحاق والتقييد حين تقارن بين المثال السابق "صحوت إذ تطلع الشمس " .

وهى من أمثلة التخصيص عن طريق الظرفية من جهة .

ومثالنا اللاحق " أصحو فى وقت طلوع الشمس " الذى جعلناه فى أمثله النسبة من جهة أخرى . فالمعنى فى الأول هو تقييد لإسناد زمنًا فالصحو كان وقت طلوع الشمس نصًا لا غير . على حين أن المعنى فى الثانى هو نسبة الصحو إلى وقت طلوع الشمس لا إلى غيره .

والخلاصة هى أن الصحو فى المثال الأول متوقف على زمن طلوع الشمس فهو مقيد به .

أما فى المثال الثانى الصحو منسوب إليه غير متوقف عليه لـــذلك يجوز أن يكون المثال على نحو آخر كقولنا " اصحو فى وقت الظهر " .

(٤) التبعية :

هى قرينة معنوية عامة تضم فروعا هى النعت والعطف والتوكيـــد والإبدال . وتتضافر مع هذه الفروع الدالة على التبعية قرائن لفظية كالرتبة ، قرينة التابع هى التأخر دوما عن المتبوع ، والمطابقة بين التابع والمتبوع ولا سيما فى الأعراب ، والأداة وهى قرينة تخص العطـــف بـــالحرف أى عطف النسق .

(٥) المخالفة :

هى قرينة معنوية يقصد منها أن جزءا من أجزاء التركيب يخـــالف أحكام الإسناد الجارى ، ويبدو هذا جليا فى باب الاختصاص نحو تحت – العرب – لا نقبل الضيم "

فالعرب هنا جزء يخالف مقتضى الإسناد الذى يتطلب خبراً ، ولذلك لا يمكن أن تعرب كلمة العرب خبراً لأن المراد معنى يخالف ما ذكر وهو أخص وأعنى – على حين أن المتكلم إذا قال : " نحـــن العـــرب لا نقبـــل الضيم " لا يعنى شيئا مما سبق من التخصيص إنما يريد مجرد الإخبـــار ، فيجرى الإسناد مطلقا دون تقييد أو مخالفة .

القرائن اللفظية

١- العلامة الإعرابية :

الإعراب وحده لا يكفي ولا يقوى على تبيان المعنى النحوى . وبروز العلامة الإعرابية فى العربية الفصحى دفع النحاة إلى البحث فى العامل الذى يحدث الأعراب.

وهكذا أخذوا ينتبهون إلى العامل حين درسوا الحركات التى تغير بتغير المواقع ، فكل حركة إذن هى مظهر لعامل ما من العوامل المؤثرة . ولم يكونوا فى البداية يقصدون أنه عامل حقيقى يتسلط على المعمولات ، إنما قصدوا أنه عامل اقترانى يفسر التغيير الحاصل فى حركات أواخر الكلمات .

ويلاحظ أن العلامة الإعرابية قد تكون القرينة الواحدة التى تفسر الإسناد نحو قوله تعالى : " إنما يخشى الله من عباده العلماء " [١] .

وقوله تعالى : " وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات " [٢]

(٢) الرتبة :

وهى وصف لمواقع لكلمات فى التراكيب والرتبة نوعان هما : رتبة محفوظة ، ورتبة غير محفوظة . والرتبة المحفوظة : تخص النحو لأن أى اختلال يمسها يجعل التركيب مختلاً غير مقبول – على حين أن

---

[١] فاطر : ٢٨

[٢] البقرة : ١٢٤

الرتبة غير المحفوظة تخص البلاغة إذ اهتم بها علم المعانى الذى يبين أغراض التقديم والتأخير ضمن دراسة للأسلوب لا للتركيب .

ومن أمثلة الرتب المحفوظة تقدم الموصول على الصلة ، والموصوف على الصفة ، والمؤكد على الموكد ، والفعل على الفاعل ، والمضاف على المضاف إليه وأدوات الشرط والجزم والنفى والاستفهام وهى التى وصفت بأن لها الصدارة دوما .

ومن أمثلة الرتب غير المحفوظة تقدم المبتدأ على الخبر ، والفاعل على المفعول ، والفعل على المفعول ، والفعل على الحال ، وليس القصد من الفصل بين هذين النوعين من الرتبة إخراج الرتب غير المحفوظة من نطاق النحو نهائيا ، لأنها قد تكون القرينة الوحيدة التى يلجأ إليها لكشف علاقة الإسناد ، ولا سيما فى المبنيات وما لا تظهر عليه الحركة نحو ضرب موسى عيسى .

إن موسى هنا فاعل ، وعيسى مفعول به استنادا إلى أن الأصل تقدم الفاعل وتأخر المفعول ، مع أن ذلك ليس رتبة محفوظة ، كذلك قد تعكس الآية فتغدو الرتبة غير المحفوظة محفوظة على سبيل الإلزام . كما فى وجوب تقديم الخبر على المبتدأ نحو أين الحرية ؟ ، " فى الدار صاحبها " وقوله تعالى " لكل أجل كتاب " [1] .

٣- الصيغة :

هى المبنى الصرفى الأسماء والأفعال والصفات وهى قرينة لفظية يقدمها علم الصرف للنحو .

---

[1] الرعد : ٣٨

وأمثلة هذه القرينة فى بيان المعنى النحوى كثيرة ، فالفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر ونائب الفاعل ونحو ذلك يطلب فيها أن تكون أسماء لا أفعال ولذلك لا يتوقع أن يجئ الفاعل غير اسم كأن يأتى فعلا نحو جاء " أتى " ، وإن حدث مثل ذلك لجأنا إلى التأويل عن طريق إعراب الحكاية نحو جاء تأبط شرا أى جاء المسمى بملة " تأبط شراً".

ولمعانى الصيغ الصرفية أثر واضح فى بيان المعنى كذلك ، ففى جملة يتصدرها فعل يدل على معنى المشاركة لابد من أن يأتى اعلان معنى " أحدهما فاعل نحوى والآخر اسم معطوف عليه نحو تشارك على ومحمد " وفى جملة فعلها متعد "ولا سيما إذا كان التعدى مسببا من زيادة لابد من ذكر المفعول به إكمالا للمعنى ، نحو أوصل زيد أخاه إلى المحطة قدم خالد هدية إلى أمه .

وفى جملة فعلها من أفعال فعل يفعل لا يتوقع مجئ مفعول به ، لأن هذه الأفعال لازمة أصلا ، وإن جاء بعد الفاعل ههنا اسم منصوب أعراب تمييزا لأن معنى المفعولية مفقود نحو كرم سعد نفسا .

٤- المطابقة :

هى قرينة لفظية توثق الصلة بين أجزاء التركيب وتعين على إدراك العلاقات التى تربط بين المتطابقين وإذا ما اختل شئ من المطابقة أصبحت الكلمات الواردة فى التركيب مفككة العرب ما يؤثر فى المعنى تأثيرا سلبيا ، وتكون المطابقة فى العلامة الإعرابية والشخص والعدد والنوع والتعيين ، ويظهر المثال التالى طبيعة المطابقة وكونها قرينة لفظية على المعنى المراد من التركيب : فإذا قلنا : الرجال الصابرون يقدرون .

كان التركيب تام المطابقة صحيحها ، أما إذا أنقصنا شيئا مما يلـــى صار التركيب مختلا .

٥- الربط :

هو قرينة لفظية تدل على اتصال أحد المترابطين بالآخر وللـــربط دور فى إبراز المطابقة بين أجزاء الكلام ، وتوضيح معنى الإسناد ويـــتم الربط بين الموصول وصلته ، والمبتـــدأ وخبـــره ، والحـــال وصـــاحبه والمنعوت ونعته ، والقسم وجوابه ، والشرط وجوابه ونحو ذلك .

ويكون الربط بالضمير مستترا وبارزا ، فالمستتر نحو زيد قام أى هو والبارز نحو زيد قام أبوه . وحين يعود الضمير على مذكور ينبغى أن يطابقه من حيث الشخص والعدد والنوع نحو الفـــائزان تســـلما وســـامين وسلمين رفيعين .

كما يكون الربط بالحرف كالفاء الرابطة لجواب الشرط ن والـــلام الواقعة فى جواب القسم ، وألف ولام التعريف النائبة عن الضـــمير نحـــو قوله تعالى : "جنات عدن مفتحة لهم الأبواب" [١] أى أبوابها . وقوله تعالى : " إن الجنة هى المأوى " [٢] أى مأواه

ومن المعروف أن جواب الشرط إن لم يكـــن صـــالحا لأن يكـــون شرطا وجب اقترانه بالفاء لترتبطه بالشرط لفقد المناســـبة اللفظيـــة حينئـــذ بينهما ، كذلك تحتاج أما ولولا والقسم إلى أدوات ربط حتى يعلـــم أن مـــا

[١] ص : ٥

[٢] النازعات : ٤١

بعدها جواب لها ، كما يكون الربط بإعادة اللفظ أو المعنى ، فاللفظ كقوله تعالى " الحاقة ما الحاقة " [1] والمعنى نحو محمد شفيعي نبي الله.

ويقوم اسم الإشارة مقام أداة الربط كقوله تعالى : " يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن " [2] .

قوله تعالى : " والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار " [3]

٦- التضام :

وهو أن يستلزم أحد العنصرين النحويين عنصراً آخر فيكون التضام على هيئة "التلازم" وعكسه أن يتنافى معه فلا يلتقى به ويكون حينئذ على هيئة " لتنافى " ويتخذ التلازم شكل الافتقار حين تشتد حاجة أحد العنصرين إلى الآخر كالموصول وصلته ، وحرف الجر ومجروره وواو الحال وجملة الحال وحرف العطف والمعطوف ، والنواصب والجوازم والفعل المضارع الذى يأتى بعدها ونحو ذلك وإذا عرض عارض أجاز حذف أحد هذين العنصرين ، فلابد من قرينة دالة على المحذوف كحذف المبتدأ أو الخبر وحذف الموصول أو الصلة وحذف المضاف أو المضاف إليه .

---

(1) الحاقة ١-٢

(2) التغابن : ٩

(3) البقرة : ٣٩

والتضام قرينة لفظية ذات أثر في انسجام العناصر النحوية لأنها تحدد وظائفها وما تشير عليه من معاني في السياق النحوي .

ومن أمثلة ذلك أن اسم الموصول وصلته يمثلان عنصرين لا يقوى احدهما على الاستغناء عن الآخر أو الحلول محله فإذا لنا جاء زيد الذى أحبه انصرف معنى الصلة إلى الذي مباشرة دونما تطرق احتمال كونها خبراً أو صفة أو حالا لأنها جزء متمم لموصول لا يغني عنه كما أن الموصول مفتقر إلى هذا الجزء – أي الصلة – افتقار واضحا كذلك الشأن بين المضاف والمضاف إليه ، فالظرف الذى يهيأ للإضافة لابد له ن الاتصال بالمضاف إليه ، وإن يكن اسما صريحا فقد يأتي بعده تركيب نحوى مستقل يحل محل المفرد لأن الفائدة لا تتم إلا به نحو قوله تعالى : " والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ويوم أبعث حيا " [1] وظاهر أن المضاف أو المضاف إليه لا يقوى على الانفراد بالمعنى ، لأن المعنى شركة بين الجزأين معًا .

---

[1] مريم : ٣٣

٧- الأداة :

هى مبنى صرفى يؤدى وظائف خاصة فى التركيب النحوي وقد تنبه علماء العربية الأوائل على ما للأدوات من أثر فى فهم النصوص الدينية والآثار الأدبية ، لذلك عملوا على تصنيف كتب خاصة تضم هذه الأدوات وما تؤديه من معان وتقسم الأدوات بالنظر إلى أصولها إلى قسمين :

الأول : هو الأدوات الأصلية أى التى لا تنتمى إلى أى مبنى صرفى سابق وإنما هى حروف وضعت لمعان خاصة عند أهل اللغة أساسا .

والثانى : هو الأدوات المحولة وهى التى تنتمى إلى مبانى الأسماء أو الظروف أو الأفعال لكنها اشبهت الحرف شبها معنويا فأدت وظيفته وغدت فى عداد الأدوات.

وتشترك الأدوات جميعا فى أنها لا تدل على معان معجمية إنما تدل على معنى وظيفى عام هو التعليق وتختص كل فئة من الأدوات بعد ذلك بوظيفة خاصة كالنفى والتأكيد والتشبيه وغير ذلك لكل أداة من الأدوات ضمائم خاصة بها إذ تتطلب بعدها شيئا بعينه فتكون قرينة متعددة جوانب الدلالة حيث تدل بمعناها وبموقعها وبتضامها مع الكلمات الأخرى وبما قد يكون متفقا مع وجودها من علامات إعرابية على ضمائمها .

وللأدوات ارتباط بالقرائن الفظية فى السياق النحوى ، إذ تكون وسيلة للربط أو تعبيراً عن التضام ودليلا على الرتبة وعاملاً يؤثر فى العلامات الإعرابية . أما المعانى التى تؤديها الأدوات[١] عامة فى كل ما تدخله من تراكيب نحوية فهى أكثر من أن يتسع لها مجال .

---

[١] انظر كتابنا الأدوات والحروف معانيها ووظائفها النحوية والدلالية .

٨- النغمة :

هى الإطار الصوتى الذى تقال به الجملة فى السياق ، فهناك أشكال لتنغيم تنطق بها الجملة الاستفهامية أو الجملة المثبتة أو المنفية أو المؤكدة أو جملة النداء أو التمنى أو العرض ونحو ذلك فلكل جملة من هذه الجمـــل شكل أو صيغة تنغيمية خاصة بها .

وبناء على ما تقدم قد تكون النغمة قرينة أكيدة على المعنى النحوى ولا سيما حين يتصل الأمر بالجمل التأثيرية المختصرة نحو: يا ســـلام أو الله أو لا .

وبما يتصل باللغة الانفعالية عامة . فالنغمة التى تنطق بهــا هــذه الجمل وما يماثلها هى التى تحدد إذا كان الكلام تعجبا أو سخرية او قبولا أو رفضا كما تحدد مثل هذه الجمل وغيرها إذا كان الكلام خبرا أو إنشاء .

ويقوم التنغيم فى الكلام المنطوق مقام علامات الترقيم فى الكـــلام المكتوب بل أن هذه العلامات ما هى إلا تعبير عـــن الأشـــكال والصـــيغ التنغيميه المصاحبة للكلام فى المقام الذى حدث فيـــه ، وتتحقـــق النغمـــة بوسائل صوتية متعددة كالنبر والوقف والمد والوصل والفصل ونحوها .

تحليل التركيب الإسنادى

الجملة تركيب يضم عنصرين أساسين بينهما علاقة إسنادية ويختلف هذا التركيب عن ما سواه من أنواع التراكيب اللغوية كالتركيب الإضافي و الوصفي والعطفي والمزجي بأنه " الوحدة " النحوية الصغرى التي يعبر بها الإنسان عن معنى لا تستطيع الكلمة المفردة أن تقدمه كما لا تستطيع سائر التراكيب المذكورة أن تفعل ذلك ، والجملة تتألف من مسند ومسند إليه ، فالمسند هو محكوم به ، والمسند إليه محكوم عليه.

ومواضع المسند فى العربية هى : الفعل والخبر وخبر كان وإن وأخواتها واسم الفعل والمصدر النائب عن فعل الأمر .

ومواضع المسند إليه هى : الفاعل ونائبه ، والمبتدأ وما أصله مبتدأ كاسم كان وإن أخواتها ، أما القيود فنحو أدوات الشرط والنفى والمفاعيل والحال والتمييز والتوابع والنواسخ .

وذهب المناطقة منذ القديم إلى أن فى العبارة – وهو مصطلحهم الخاص عنصرين لابد من وجودهما فيهما وهما :

١- الموضوع : " المخبر عنه ، والموصوف والمسند إليه " .

٢- المحمول : المخبر به والصفة والمسند .

فقولنا الشمس طالعة يتضمن المعمول وهو " طالعة والموضوع وهو الشمس فالعبارة هى مجال اقتران الموضوع بالمعمول ويستند هذا التحليل المنطقى إلى أن عملية التفكير تقوم على ثلاث وظائف هى :

التصور " عرض الموضوع " .

- والحكم " التعبير عن المعمول " .

- والمحاكمة " الربط بين حكمين لاستنتاج حكم ثالث " .

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب القواعد الذى أصدره وبورت رويـــال Port Royal عام ١٦٦٠ للمؤلفين لا نسلو Lancelat وأرلـــو Arnuld حاول التقريب بين الدرس المنطقى للعبارة وقواعد الجملة سعيا إلى التحليل المنطقى للغة الإنسانية عامة .

الفهرس

النحو العربي : تاريخه وخصائصه وأعلامه
الترقيم الدولي
٩٧٧ ٣٩٧ ٠٥٨٢
رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٩١٣٨